رواية

لو

منجمة.. ثكلى.. مخادعة

فلونا عبدالوهاب

دار الحكمة

لندن

- لو.. منجمة.. ثكلى.. مخادعة ـ رواية
- **تأليف:** فلونا عبد الوهاب
- **الطبعة:** الأولى ٢٠١٨
- **الناشر:** دار الحكمة ـ لندن
- **الاخراج الفني:** شركة MBG (INT) Ltd ـ لندن

ISBN: 978-1-78481-148-8

DAR ALHIKMA

Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037

E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

اهداء إلى...

الأحلام المبهمة . . .

والأسرار المكتومة . . .

والآمال التي تبقينا على قيد الحياة . . .

شكر وثناء

إلى . . .

الورود التي يضمها حنان أبي وأمي . . .

فاديا . . لمى . . نهى . . ربى . . رؤى . . .

ومسك الختام حبيبتي تمارا . . .

(1)

أما زال يراودك ذلك الحلم...؟

ذلـك الضئيـل المسـمى بعقـرب الثوانـي يا له مـن بغيضٍ ومتسـلط ، فبرغـم ضآلة حجمـه وتكوينه ، إلا أنه يتحكم بالوحش المصلوب على جدار غرفتي . . .

ـ لا . . لا أظن هذا ، أيعقل . .!؟

أيعقل أن يكون ذلكَ الوحش هو الـ . . . أما الضئيل ما هو إلا نكرة مغلوب على أمره . .؟

وما هذا الشيء الذي يحترق بين أصابعي . .!؟

ولِمَ البرود يتملك مشاعري بينما أراه يذبل ويتهالك . .؟ وكأني وحش بـ . . .

لا . . لست أنا ، بل هو البغيض . .

هو من يتحكم بي ويأبى أن يفارقني نافثاً سمّه في جسدي الضعيف ، المسكين ، الـ . .

يا لوقاحتي . .!!

كيف أرمي اللوم على هذا المسكين . .؟

وأنا الذي قمت بجره من بين إخوته ، ثم أضرمت النيران بجسده الرقيق دون أن يرف لي جفن . .

بل الأمرّ والأدهى هو إني سأحتسي فنجاناً من القهوة وأنا اطالع مشهد تعذيبه بشغفٍ كبير . .

بل سأقوم بحرقِ أحد إخوته قبل أن تهمد نيرانه ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى يُجرب معي صنوف العذاب . .

وفي النهاية سأدعس على رأسه معلناً انتهاء مشهد التعذيب . .

أجل ؛ أنا هو . . أنا هو البغيض . .

لكن . .

هل هو ذنبي . .؟ أم ذنب فنجاني . .؟

هل هي طقوسي . .؟ أم طقوس فنجاني . .؟ من هو . . إذاً من هو البغيض . .؟

ـ أمن أحدٍ هنا . .؟

من سكن خزانتي . .؟

أهي كائنات صغيرة تتخذ منها مأوى ، أم أرواح من أحرقتهم عادت لتنتقم مني . .!؟

ـ من هنا . .؟

أهو الموت ، هل للموت صوت ، رائحة مميزة . .؟ لَمَ كنت أخاله سيزورني بهدوءٍ وسكينة . .؟

حين أفتح هذا الباب ، مؤكد سأجده يتربع في الداخل وهو يبتسم لي . .

ولِمَ قد يبتسم . .؟ فقد يكون ذا وجهٍ حزين . .

ولكن لِمَ أنتَ خائف يا عصام . .؟ ألم تكن ترجوه كل ليلة ليزوركَ . .؟

ها قد أتى فلتفتح له ، هيا فلتفتح . . هيا إذهب . . إذهب . .

ـ كفى . . كفى . . سأذهب . . سأذهب . .

يدي ترتجف وتحاول الهروب ، لكن دون جدوى ، فقبضة الباب قد أحكمت الإمساك بها وصارت تشدها رغم أن بابها يرفض أن يُفتح . .

ولكن هل يرفض الموت مقابلتي . .!؟

ـ من في الداخل . .؟

لا . . ليس الموت ، هو ليس من شيمه الخوف أو الرحمة . .

إنه لص . .

أجل ؛ هذا أكيد . .

لكنه لص بائس ، إذ أني لا أملك سوى بقايا من روحٍ وجسد وما هي بالشئ الثمين . .

أخيراً فُتحت الخزانة لتقذف من أحشائها زوبعة ، زوبعة مجنونة راحت تنهال علي بالصفعات . .

صفعة بعد صفعة ، ورقة بعد ورقة . .

يا لهذهِ المسكينة . .

من الذي حشرها بين فكي الخزانة ، حتى تتمزق وتتساقط على رأسي صفحاتها ، ثم تتناثر من حولي كحطام سفينة . .؟

بينما أنا أقف بصمتٍ ، كربان فاشل . .

لكن أين اللص ، الموت ، الأرواح المنتقمة ، والكائنات الصغيرة . .؟

لا أحد . . هل يعني . .

أنين المدونة . .!!

أكانت نداءاتها الأخيرة وهي تستنجد برصاصة الرحمة . .؟

أم إنها الخزانة ، كانت تقيم طقوساً وهي تقتل مدونتي العزيزة . .؟

ـ لا تحزني فلن أرمي بكِ في مكب النفايات تاركاً أوراقكِ الجميلة وغلافكِ الذهبي للضياع ، بل أعدكِ سأجمع أشلاءكِ وأجعل من المدفئة مثواها الأبدي ، لتبعثي من جديد ، وسأهرب كل ليلةٍ من سريري خلسة لأقرأ الروايات والقصص بقربكِ . .

ما بها . .؟ هل ساورتها الشكوك . .؟ أتحسبني قد بالغت بوعودي . .؟

لن ألومها فلو كنت حقاً أعزّها لما قدمتها فريسة لذاك الفك ، رغم أني لا أذكر لمَ أو كيف أو متى . . اللعين قد عاد ثانية ، لن أرحمه هذه المرة وسأنتقم لكِ يا عزيزتي . .

ـ أين تختبئ . .؟ لمَ تحشر نفسكَ داخل خزانتي . .؟

ثيابي تحلق عن يميني وشمالي هاربة من أعشاشها كطيورٍ مذعورة ، أما أنا فمنهمك بالبحث عن ذاكَ اللعين . . الـ . .!!

ـ صلاح ، أهذا أنتَ . .!!

خارت قواي ، تلاشى غضبي ، وعلى أعتاب خزانتي جلستُ أحمله بين يدي . .

ـ صلاح

ـ . . . .

ـ لا تقلق . . أنا بخير

ـ . . . .

ـ لقد تركت العمل

ـ . . . .

ـ ولكن . .

ـ . . . .

ـ حسناً . . حسناً اتفقنا

ـ . . . .

ـ تصبح على خير

فوضى من الأوراق . . من الثياب . . قد عاثت الخراب في الأركان ، بعد أن غزت رنة هاتفٍ مجنون خزانتي . .

* * * * * * *

الساعة الواحدة إلا ربعاً بعد منتصف الليل ، والضئيل ما زال يدور ويدور ، وما زلتُ منتظراً قدوم النوم وأنا أجر الضحايا وأحرقهم الواحد تلو الآخر . .

يا ترى ما الذي يشغل النوم عني . .؟

ولِمَ يبدُ هذهِ الأيام مزاجياً ولا يحترم مواعيده . .؟

* * * * * * *

الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، ولم يأتِ بعد . .

* * * * * * *

الساعة الثالثة و . . و . . و . .

* * * * * * *

ـ عصام . . عصام . .

أصوات خفية تناديني ، ولفحات من نسماتٍ باردة تلطم خدي ، وشيءٌ ما يحاول كتم أنفاسي . .

أنفاسي التي بدأت تتقطع ، يجب أن . . يجب أن . . أن . .

ـ اااااااه . .آه . . آه . .

تباً للأحلام ، لمَ تحاول قتلي . .؟ ومن يحاول كسر الباب . .؟

هل أنا مستيقظ . .؟ أم إن حلماً جديداً جاء لخطفي . .؟

ساقاي من رعشتهما لا تحملاني ، تظنانِ أن رحلتهما الى الباب ستكون الرحلة الأبدية ، بعد أن يبترهما ذلك الجزار الذي يحاول كسر بابي . .

ـ من . . من هناك؟ . .

ناديت بصوتٍ متقطع لم يجد له مجيباً ، ولا يقوى على إعادة ندائه . .

فبعض الكلمات كانت تختفي في مخابئها رافضة الخروج ، بينما الأخرى من شدة خوفها تحشر نفسها داخل حلقي ، حتى أكاد بها أختنق . .

لن أفتح ، يجب أن أعود أدراجي ،لن أفتح أبواب الشر والعذاب . .

ـ أجل سأعود ، يجب أن . . أن . .

أترفضين العودة ، أم تجمدت عروقكِ واستسلمتِ للموت هنا . .؟

تتخلين عني يا ساقيّ الآن . .!! إنها الخيانة . .

الخيانة . .!! ولَمَ الخيانة . .؟ ربما هي الشجاعة . .؟ تحاول مواجهة مخاوفها . .

تحاول أن . .

وما ذنبي . .؟ أنا لا أريد أن . . أن . .

حسناً ، سأواجه مخاوفي . .

روحي تتوسل الرحمة في حين جسدي يقف أمام الباب كتمثالٍ حجري لا يبالي بخوفٍ أو وجع . .

ـ سيدي هل أنتَ بخير . .؟ هل تسمعني . .؟ سيدي . . سيدي . .

للحظة تمنيت لو أني أحمل فأساً أو سيفاً فأقطع هذا المخلوق ، بدل أن ابتلعه بصرخاتٍ مجنونة ، تختبئ في دهاليز جسدي المرتعد . .

ـ اااااااه . . من أنتَ . .؟

ـ أنا . . أنا . . ساعي البريد . .!!

بيدٍ خائفة مرتعشة ناولني طرداً ذا ألوان زاهية لا تتلاءم مع هذا

الصباح العجيب ، ثم فر قبل أن يطلب توقيعي . .

لماذا فر . .؟ فأنا لا أملكُ سيفاً تقطر منه الدماء ، وهذا ليس بوجهي إنه مجرد قناع . .

قناعٌ يخفي وراء قبحه وشره لا ملامح ، لا شيء . .

لماذا أراد تحطيم بابي . .؟

ألا يكفي ما عانى من ضرب وصفع الأغراب له ، وتحمل المزاحات الثقيلة لأولادِ الجيران وهم يرمونه بطاباتهم . .؟

حتى إنه لم ينجُ من مزاجيتي وامتناعي عن حمل مفاتيحه ، زاعماً أن والدتي دوماً ستفتح لي . .

وعند عودتي ابدأ بضربه وصفعه كالأغراب ، بينما هو يعفو ويصفح ويتناسى ويستقبل بلا موعد . . بلا موعد . . بلا موعد . .

ـ تباً ؛ كدت أنسى موعدي مع صلاح . .

* * * * * * *

تعتلي رأسي وتسدل أطرافها وتحجب المرايا لأختبئ بها عن نفسي ، ولتهرب قطرات الماء الباردة من خصلات شعري فتزاحم هموماً تعلو أكتافي . .

ـ لماذا أختبئ . .؟ ما الذي أخشاه . .؟

أزحت المحرمة عن رأسي فاضحاً هروب قطرات ، وكاشفاً عن . . عن . .

ـ من أنتَ . .؟

إحدى يدي تستند الى المرآة فيما الأخرى منشغلة بتعقب تضاريس وجهي . .

ـ من أنتَ . .؟ لمَ كل هذا الحزن . .؟ وكيف روحي اعتادت العيش معه . .؟ أم إنه حزنها قد فاض وأغرق ملامحك الجامدة . .؟

أخذتُ أتنهد مراراً وتكراراً ثم نظرت في عيني لأحاور روحي ، لكن لا جدوى . . لا روح . .

لم أعد سوى جسد خاوٍ كحياتي الخاوية . .

حياة لم يعد فيها سوى ألم . . شوق . . حزن يأسر الأفراح ويسلبها الحرية . .

وصورة زرعتها في وسادة ، لأسيقها كل ليلة من دموعي . .

ـ اشتقتُ لكِ يا . .

طرقات الباب عادت من جديد لتمزق استمرارية الزمان والمكان في مخيلتي . .

ـ أنا . . أنا قادم . .

لم تقطع الخطوات المتثاقلة سيرها نحو الباب ، حتى استوقفتها زهرية تحبها أمي وتكللها بالورود في كل صباح . .

إلا هذا الصباح تركتها خالية بلا ألوان . . بلا عطور . .

وكأن لعنة أصابتها أو قد غزتها الرياح . .

ـ عصام . . عصام . .

جاءت نداءات صلاح لتذكرني بقدومه . .

لتذكرني بأمورٍ جاهدت روحي لنسيانها ، فمحوت جمال الزهرية بعد أن هوت من يدي كما محوت كل شيء جميل من حياتي . .

ركضتُ . . ركضتُ كطفلٍ مذنب يخشى العقوبة ويخاف الألم . .

الألم . . رأسي . . رأسي كل ما حولي يدور ويدور ثم يذوب ويختفي . .

ـ عصام . . عصام . .

مرة أخرى يناديني . . يناديني ، لكن بلا ألم . . لا ألم . .

إنما جنون . . جنون بهيئة رجلٍ غطت الدماء وجهه ، بعد أن افترش قارعة الطريق ، وامرأة قربه تصيح وتبكي بشكل هستيري . .

سأغمض عيني مع نفسٍ عميق ، ثم بعد ذلك أفتحهما ، سينفع ذلك أكيد . .

فأنا ما زلت أحلم . .

ـ مؤكد ما زلت أحلم . .

السكون يغرق المكان ويطفو على سطحه فضاء بارد . . هادئ . . بشكلٍ مخيف ومريب . .

بعد أن أبتلع جميع من كانوا حولي . .

وضوء خافت يناديني من بعيد ولا أصل إليه . .

فجسدي لم يعد ملكي ولا يسمع لي أو يستجيب . .

جفناي وحدهما من استجابا رغم أني لا أشعر بحركتهما . .

لكنهما مؤكد مفتوحان . .

أم . . لا . . لا مستحيل . .

يستحيل أن أبصر دون فتحها . .

ما هذا الذي ولد من العدم . .؟

ولِمَ يحاول تمزيقي . .؟ ذراعي . . ذراعي . .

سيلتهم ذراعي . . من شدة السحب سيمزقها . . سيمزقها . .

دون ألم . .!!

أين الألم . .؟ لا أشعر بشيءٍ . . لا أشعر . . لا . .

ـ لا . . لا . . لا . .

الضئيل ما زال يدور ويدور بلا تذمر بلا شكوى كثورٍ في ساقية ، وعن يميني تقف أمي وهي تشد ذراعي ، بعد أن تمكن الخوف من وجهها الملائكي . .

ـ أما زال يراودكَ ذلكَ الحلم . .؟

لا أملك القدرة على النطقِ فاكتفيت بإيماءةٍ من رأسي ألخص فيها كل اجاباتي . . مخاوفي . . ومعاناتي . .

ـ حسناً يا بني لتنهض بسرعة ، فصلاح ينتظركَ في الخارج

مؤكد سأنهض بسرعة ، لا لانتظاره لي . .

إنما لخشيتي من أن يعود النوم ، ليخطفني مرة أخرى ويسلم

رقبتي لذاك الحلم اللعين . .

* * * * * * *

أجلس كتلميذ مهذب أمام صلاح أو بالأحرى الهرم صلاح أحد عجائب الدنيا السبع كما تراه أمي وأحياناً تراه مرجعاً شاملاً للعلوم ، ولكثرة حديثه عن أفلاطون وأرسطو سألتني ذات مرة . .

ـ هل درسَ الطب على يد أفلاطون وأرسطو . .؟

ـ لا . . بل هو من درسهما

كل أسبوع تقريباً ، أُجبر على اتخاذ هذهِ الوضعية . .

وضعية التصنع والادعاء بأني أسمع وأتفكر في الكم الهائل من تجاربه ونصائحه ، وبكل ما قد تنطق شفاهه . .

شفاهه التي لا تمل من الحركة ، كذاك الضئيل . .

أحياناً أشعر أني أكرهه بشدة وأحياناً لا ، فرغم كل شيء هو قريبي وربما صديقي . .

فحين ابصرت الدنيا وجدت أمي قد جعلت منه صديقي الذي لا شريك له ، وكم تمنت أن أتحول صورةً طبق الأصل عنه . .

وقد خيبت آمالها كما تسمعني دائماً . .

ـ كم تمنيتُ لو تكون كصلاح . .

ولمَ علي أن أكون مثله . .؟ وأنخرط في صفوفِ جيشٍ من الدمى . . صلاح 1 . . صلاح 2 . .

لمَ أتحول . .؟ ألستُ بشراً ولي كياني . . أفكاري . . أحلامي . .

هذهِ الأمنية جعلتنا ندخل بحواراتٍ ونقاشاتٍ انتهت جميعها بالفشل ، وأنا أردد مطلبي اليتيم . .

وهو إني لست صلاح ، ولم ولن أكون . .

أما أمي الحبيبة فتردد صلاح الجميع والجميع صلاح . .

ـ صلاح صار طبيباً وأنتَ ما تزال تتسكع بين المكتبات مبذراً ما أجنيه من تعبي على الروايات والقصص . .

دائماً الجمل ذاتها . . الكل تبدأ بالتسكع وتنتهي بالتعيير بما تمن علي من مالها . .

الى أن دبّر صلاح وظيفة لي في المستشفى ، يومها أنستها فرحتها أن تسأل عن نوعها ، فكل ما يهمها أن تكون بالقرب منه . .

وعند تسلمها أول راتبٍ لي بدت وكأنها تحمل مفاتيح الجنان ، أما أنا فبدوت كنكرة . . كمعتوه . . كطفلٍ صغير وهم يمثلون دور

الأوصياء علي . .

بعدها خاصمتني عدة أيام لأني فكرتُ بترك العمل . . المرضى . . الموتى . . والدماء . .

ـ هذا العمل لا يناسبني

ـ وما الذي يناسبك يا كاتبنا العظيم . .؟

نبرة الاستهزاء في كلامها جعلتني أكتب وأكتب وأخاطب دور النشر وأطرق أبوابها . .

لكن بلا مجيب . .

فالطريق لم تكن ممهدة ومفروشة بالورود والرياحين ، ولم أكن الكاتب الوحيد الذي قذفت به دوامة الزمن ليجد الشهرة متلهفة لوصوله . .

قطعت عني المال ، العطايا والمنن ، حتى يكون الفشل حليفي ويغرق قارب النجاة قبل أن يؤويني . .

فتعود لربط مصيري بصلاح ومرددة بقوة . .

ـ أنا أفكر بمصلحتكَ يا ابني . .

هل هذا يعني أن أرسل خطاباً لعقلي طالباً منه أن يذهب في رحلة استجمام طويلة ، ما دامت هناك بدائل تكمل عنه التفكير . .!؟

أمي . . صلاح . . دور النشر . . جيوبي التي نسيت رائحة النقود من فترةٍ طويلة . .

اجتمعوا ودبروا أمراً بليل وقرروا كسر ذراعي لا ليّها فقط ، وإن أحسوا بنية رفض أو مقاومة فسيلجأون للبتر . .

اجتمعوا وتآمروا كي أعود الى غرف الموتى . .

الى الخوف . .

وأنا أنظر للوجوه الشاحبة خشية أن تزورني في أحلامي . .

ـ حسناً يا عصام هل أنتَ موافق . .؟

ـ موافق . .

قلتها بسرعة بلا تردد ، كصدى صوتٍ أو ببغاءٍ يردد ما حفظ بلا فهم . .

لأني أجهل تماماً ما الغاية من سؤاله ، فلم أكن أنصت لكل ما بربر به لسانه . .

لكنني أكيد من أن جوابي هو الصحيح والأنسب ، بل إنه الوحيد

لجميع أسئلة صلاح كما تحب أمي . .

ـ أي شيء يا بني يطلبه منكَ أجبه بموافق ، إذ أنه واعٍ وفاهم ويحب لك الخير دوماً . .

يحب لي الخير هذه العبارة تركتها جانباً فلا داعي من الاختلاف عليها . .

أما واعٍ وفاهم فلن أتركها . .

أتعني أني لست بواعٍ ولا افهم . .؟

لا أقدر أن أميز إن كنت سمكة أو أنساناً ، حتى يأتي صلاح ويشرح لي الدرس . .

كم تمنيت لو أني أتسلل الى داخل رأس أمي وأفتش في أفكارها ، لأكتشف العمر الحقيقي الذي تراني فيه . .

ـ يا ليتك كنتَ بمثل نصف صلاح . .

هذه الجمل العقيمة غالباً ما كانت تثير جنوني . .

أما ما كان يثير جنونها فهو التزامي بالصمت رغم سماعي لها وجلوسي بلا حراك مكملاً تفاصيل الأريكة ، في حين نيران ثورتها تحرق كل ما حولي . .

لكنها لا تستسلم . .

لا تنهي ثورتها بالجمل العقيمة إنما بالقاضية . .

ـ لا فائدة منكَ . . لو أن الله خلقكَ فتاة لكان أفضل ، على الأقل كنت زوجتك لصلاح وارتحت من همك . .

ـ . . . .!!

ما هذا المخلوق العجيب الذي لن أتخلص منه حتى لو تحولت الى فتاة . .!؟

وما هذه الأمنيات العجيبة التي تخترعها أمي . .!؟

هذهِ هي حياتنا . .

تبدؤها أمي بالثورة ، ثم القاضية وأخيراً بإعلان النصر بدمٍ بارد . .

أما أنا فأنهيها بالهروب السريع (لأتسكع بين المكتبات) كما تدعي . .

لعل ذلك ينسيني أمنياتها الشريرة . .

(2)

هل مات والدك حقاً...؟

ثاني قطعة سـكر وما زال مذاق قهوتي مـراً ، وكأن طعـم المـرارة عالـق في حلقي أو يلازمني كظلي . . .

أقلب فنجاني بهدوءٍ والذكريات تأخذني لتلك الفتاة التي رحلت عني . .

ـ أمين قد طلبكِ للزواج يا بنيتي ، فما هو ردكِ . .؟

حين سألني والدي كنت قد أكملت عامي السادس عشر ، لا أذكر كل ما مر ببالي يومها ، إلا أن فرحتي لم تكن توصف ، وأنا أسابق في الزواج قريناتي . .

ـ أمين رجل وسيم وخلوق ويبدو عليه الثراء ، والأهم إنه ليس من سكان القرية ، سأعيش في المدينة وألبس كبناتها ، سيكون لدي فساتين من كل الألوان وأحذية من كل الأشكال ، جميعها ماركات ، ولن أخيط ثيابي عند جارتنا الأرملة بعد اليوم . .

ذلك ما كنت أردده مع نفسي ، كي أتعجلها بالقبول ودخول بوابة الأحلام الوردية ، وأبي هو الآخر كان يتعجلها بقوله . .

ـ سأكون سعيداً لأجلكِ . .

وهو يحاول جاهداً أن يخفي في عينيه سراً حزيناً . .

ويوم لبست ثوب زفافي ، خانته عيناه حينها وفضحت سره الدموع . .

كانت تلك المرة الثانية التي رأيته يبكي فيها ، بعد موت أمي وأنا في الخامسة من عمري لحظة سؤالي عنها . .

ـ أبي أين أمي . .؟

يومها بكى وهو يضمني بشدة وقال إنه سيخبرني لاحقاً . .

ـ أبي إن كان يحزنك زواجي فلن أتزوج . .

ـ لا يا بنيتي . . هذه دموع الفرح

لم تكن دموع الفرح . .

ولم يكن قادراً على إخباري بحقيقتها ، كما لم يقدر على إخباري بموت أمي . .

كبرت وأدركت المسألة بنفسي . .

أما والدي فكان عاجزاً عن الجمع بين الموت وأمي في جملة واحدة . .

كما كان عاجزاً عن الاحتفاظ بي ، خوفاً من أن يأخذه الموت ويتركني وحيدة من بعده . .

كان يقف على أعتاب الستين من عمره ، حمالٌ لا يجني أحياناً قوت يومه ، بعد أن هدّه الحزن والمرض ولم يترك لي سوى أخت تكبرني بأحد عشر عاماً ، متزوجة ، وتعيش في مكانٍ بعيد . .

كل ذلك جعل من أبي عاجزاً عن قولِ . .

صغيرتي ، لا تتركي والدكِ . .

لا ترحلي . .

قبل زواجي بأسبوع قرر أن يسرق بعض ساعات نومه ، ويهديها لي ، لنسترجع من خلالها ذكرياتنا وحكايتنا الجميلة النابعة من خياله الخصب . .

أما الليلة التي سبقت يوم زفافي فقد سرق جميع الساعات ، ليبقى ساهراً يراقب عينيّ وهما تغفوان ببطء لينحت لهما بعد ذلك آلاف الصور داخل ذاكرته . .

قبل رحيلي رجوته كثيراً أن ينتقل للعيش معي . .

لكنه رفض بشدة وهو يطالع كل ما حوله ، وقبل أن يبوح لي بأسراره ، همومه ، ما يثقل كاهله . .

استوقف دمعة ومنعها من النزول ثم رسم ابتسامة مزيفة . .

حزينة . .

ـ سوف تتأخرين يا بنيتي سنتحدث في هذا لاحقاً . .

حوارنا كان مؤجلاً كحوارنا يوم رحيل أمي . .

فما زلت أتساءل عن أسراره ، اعذاره ، ما الذي لم يستطع أن يتركه في ذاك المكان . .؟

أكانت ذكرياتنا . . أحلامنا . .؟

أكان عاجزاً عن سرد الحكايات في مكانٍ آخر . .؟

أم كان يخشى أن تزوره روح أمي ، وتحزن إن لم تجده . .؟ أم كانت هي عزة نفسه . .؟

تركته . . ولم أترك جمال المدينة وسحرها ينسيني ذكره . .

إنما أرسلت له الخطابات التي تحكي عن حياتي الجديدة . . عن سعادتي . . وعن مدى شوقي له . .

أما هو فقد كان يبادل خطاباتي بلا شيء ، وشوقي بالصمت . .

التزم الصمت ، وقرر أن ينسى حملاً ، لطالما كان يثقل كاهله . .

ـ عزيزي ، سأسافر لرؤية والدي

ـ متى . .!؟

ـ في الغد أن أمكن

ـ لا مستحيل . . لن ادعكِ تسافرين

ـ ولكن . .

ـ السفر سيضر بصحتكِ وصحة الجنين

ـ ولكن والدي لا يجيب على خطاباتي ، أنا قلقة بشأنه

ـ لا تقلقي يا عزيزتي ، سأسافر وأطمئن عليه

ثم طبع قبلة على جبيني محاولاً من خلالها الهروب من أسئلة طفلٍ لحوح . .

وطوال أشهر ظل هذا الطفل يسأل ويسأل ، فيما كانت تأتيه الإجابات متقطعة غير متناسقة . .

كإجابات كاذبٍ مبتدئ . .

فتحت عيني ذات صباح ، لأجد أمين وطفلاً جميلاً يغفو بين ذراعينا وبوجوده صرنا أباً وأماً ، وقد أسميناه عصام . .

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير بني ، أأعد لكَ الفطور . .؟

ـ حسناً

بعد ولادتي لعصام بحوالي شهرين وجدت شقيقتي تقف عند عتبة بابي ، ووجدت نفسي أرتمي بين أحضانها باحثة عن عطر أبي . .

ـ أمي هل رأيتِ هاتفي . .؟

ـ لا . . لا . .

كالمجنونة رحت أصرخ بـ . . لا . . لا . .

بعد أن علمت برحيله . .

بعد أن علمت إنه قد رحل . . قد رحل . .

قد رحل والدي . .

رحيل بلا وداع . .

رحيل تركني أقف وحيدة على أعتاب منزلنا متوسلة أن يفتح لصغيرته . .

أن يفتح لي . .

ـ أبي أفتح لي الباب . . أفتح لي أرجوك ، أرجوك يا أبي . .

رحيل أبي قد غرس بذرة الأحزان في روحي ، والتي فيما بعد قد نمت وكبرت ثم أثمرت ورفضت أن تشيخ أو تموت . .

بقيت شابة يافعة ، أوراقها زاهية على مدار أيام حياتي . .

ـ أمي جاءت زبونة لرؤيتكِ

ـ . . . .

ـ أمي . . أمي . .

ـ نعم يا عصام ماذا تريد . .؟

ـ في الخارج زبونة تسأل عنكِ

ـ تباً ؛ انسكبت القهوة

ـ أمي . . هل أنتِ بخير . .؟

ـ أجل ؛ سأذهب لرؤية الزبونة . .

* * * * * * *

ـ صباح الخير سيدتي

ـ صباح الخير ، أرجو أن يكون فستاني جاهزاً

ـ أجل هو كذلك ، يمكنك سيدتي أن تجربيه الآن وتضيفي بعض التعديلات عليه إن أحببتِ

ـ حسناً ، سأجربه

ـ عصام . . انتبه كدت تكسر الزهرية

ـ آسف ، لم ألاحظها يا أمي

بدا منزلنا خالياً كأن عاصفة مرت به وأخذت برحيلها كل شيء ، جرد والدي المنزل من جميع ممتلكاته . . ذكرياته . .

كما لو كان يحضر نفسه لسفر أبدي وأراد أن يمحو كل أثر له في هذهِ المحطة . .

محا كل شيءٍ إلا جدراناً حزينة تكاد من حزنها أن تتهالك وتهوي . .

ـ أرجوك ، أتركني وحدي

ـ ولكن . .

ـ أرجوك ، يا أمين

ـ حسناً ، عزيزتي

لا أعلم كم مرّ من الوقت وأنا أتوسد الأرض باكية ، حتى شعرت بيدٍ تربت على كتفي . .

ـ أبي . .!!

طيف حاول الهروب مني ، وعلى بعد خطوات منه تجمدت خطواتي . .

لم يكن طيف أبي إنما جارتنا الأرملة ، وقفت بهدوءٍ وهي تشير لتذكار أبي . .

زهرية كان يحبها ويضع فيها كل صباح ثلاث وردات . .

ـ هذهِ أمكِ . . وهذهِ شقيقتكِ . . وهذه الصغيرة أنتِ

ـ وأنتَ يا أبي . .؟

ـ أنا . . أنا الزهرية التي بحنانها تضمكم

لم ترحل الزهرية ، هل يعني أن والدي لم يرحل . .؟

ـ آه . .

ـ هل أنتِ بخير . .؟

ـ أجل ، سيدتي . .

لم تؤلمني وخزة ابرة الخياطة بقدر ألم تلك الرسالة التي لمحتها في قعر الزهرية ، والتي من المؤكد كانت تحوي أشواقاً وذكريات وقصصاً وأحزاناً . .

إلا أن قطرات الماء قد تمكنت من التسلل إليها جاعلة حبرها يتداخل ويتلاطم كموج بحر ثائر . .

ما الذي كتبه لي يا ترى . .؟

ولِمَ حواراتنا دوماً مؤجلة . .؟ دوماً هناك أسرار ، ونهايات قصص مفتوحة . .

لقد أدركت موت أمي . .

ولكن هل مات أبي حقاً . .؟ وهل انتهت قصتنا بهذهِ البشاعة . .؟

رحيل بلا وداعٍ . . وخطاب غير مقروء . .

هل الدنيا تمتحن صبري . .؟ وهل بعد الصبر أستحق هذهِ المكافأة . .!؟

ـ أنتِ تستحقين هذهِ المكافأة

ـ ماذا . .!؟

ـ هذا ما أتفقنا عليه ، وهذهِ مكافأة لإتقانك العمل

ـ شكراً لكِ سيدتي

- . . . .

- الى اللقاء سيدتي

- . . . .

لم أكن أحرص على وضع الورود الثلاث كما كان يفعل أبي ، إنما زدتها وردتين جديدتين . .

عائلتي الجديدة ، كل ما كنت أملك ، وبقربهم كانت تصنع سعادتي . .

التي لم تدم طويلاً . .

صار أمين كثير القلق ، غريب الأطوار ، ولا يعرف ما هو النوم ، ويراقب الشارع من خلال النوافذ المطلة عليه ويترقب دوماً قدوم أحدهم دون موعد . .

عشت معه ليالي من الرعب والقلق ، حتى جاءت ليلة ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد فيها سبيلاً للهروب من مصارحتي . .

ويا ليته لم يفعل . .

يا ليتني فقدت جميع حواسي مرة واحدة ، كي لا أسمع ولا أدرك من الحقيقة شيئاً . .

وبعد أسبوعٍ أصبحت أرملة في العشرين ، وأماً لطفلٍ يتيم . .

ولا أملك ما يسد جوعنا ولا أعلم أين السبيل . .

أما تلميحات ونظرات أقارب أمين ، فقد كانت كفيلة بتعريفي بأني ضيف ثقيل . .

ضيف ليس له مأوى بينهم ما دامت جيوبه فارغة ، فلكل كان يعاني من الظروف الاقتصادية الصعبة التي عصفت يومها بالبلاد . .

حملت صغيري وسافرت لمنزلنا القديم ، منزلنا أنا وأبي . .

لكنه هو الآخر رفض أن يؤويني ، بعد أن هوت جدرانه المتهالكة كجثث لا شيء فيها يدل على الحياة . . ومن أمام أطلاله بدأت رحلتي الى منزل شقيقتي ، بحثاً عن المأوى ولقمة العيش . .

ـ أنا خارج يا أمي . .

ـ حسناً ، يا بني لا تتأخر . .

ـ لن أتأخر

ضمتني أحضانها لحظة وصولي وتركتني أبكي أمي . . أبي . . زوجي . . أبكي تعب السفر وأبكي لبكاء صغيري الذي لم تنسه حكايات أبي المشوقة طعم الجوع . .

وبعد أيام طلبت منها أن تتدبر لي عملاً بمشغل الخياطة الذي كانت تعملُ فيه ، فقد كان علي أن أعمل وأستأجر منزلاً قبل أن أعود ذلك الضيف الثقيل . .

بعد ذلك مرت الأيام بهدوءٍ بصباحاتٍ وليالٍ متشابهة بلا طعم بلا لون ، لولا وجود عصام الذي كان كقطعة السكر التي تحليها وتنسيني همومي . .

وفي يومٍ استيقظت لأجد أن التشابه لم يعد موجوداً ، أما الهدوء فقد كان يجرٍ وراءه الموت . .

رحلت أختي وزوجها في حادث سير وتركا وحيدهما ذا الخمس عشرة سنة ، لأكون أماً ليتيمين . .

أمٌ ليتيمين ، هذا ما كنت أظنه . .

أما الحقيقة أني بقرب ذاك الفتى كنت أنا هي اليتيمة . .

فحين أحاول أن أمده بالقوة هو من كان بها يمدني ، وحين أحاول أن أسانده أجده سندي . .

ذلك الفتى قد أدرك قوانين الحياة ولعبتها باكراً . .

لم يستسلم من أول ضربة ، بل صار أكثر قوة من ذي قبل . .

وراح يدرس بنشاطٍ ، ويعمل باستمرارٍ ، دون تذمر أو شكوى . .

حتى حينما يخلو مع نفسه ، كنت أراه يقف كالجندي رافعاً رأسه بثباتٍ ، كما لو كان يتحدى كل ما يحاول كسره . .

شهران مرا على رحيل أهله ، وجده كان يزوره باستمرار طالباً . . راجياً . .

أن ينتقل للعيش معه . .

لكن صلاح كان يرفض دوماً دون ذكر للأسباب . .

أما أنا فقد كنت أشفق على الرجل العجوز الذي يغادر منزلنا كل مرةٍ وهو حزين . .

ـ صلاح لمَ لا تنتقل للعيش مع جدك ، فإنه يرحل في كل مرةٍ وهو . .

ـ لو أن أمي ما تزال على قيد الحياة لما تركتك وحيدة

أجل كنت أنا الوحيدة . . اليتيمة . . الضعيفة التي تستمد قوتها منه . .

ولكن كان عليه الرحيل . .

رحل ، لكنه لم يتخلَّ عن خالته ، أو بالأصح ابنته ، كما كان يشعرني اهتمامه . .

فقد جاءني ذات يومٍ ليخبرني بأنه وجد لي عملاً جديداً ومسكناً قريباً من مسكن جده ، وألح علي بالقبول . .

ـ أريدكم بقربي لأطمئن عليكم . .

كلماته التي تكبره سناً وحبه واهتمامه بي جعلني أشعر أن روح أبي قد سكنت ذلك الجسد الصغير . .

ذات مرةٍ وأنا أرتب الورود في زهرية والدي ، فاجأني بقوله . .

ـ أخطأت في العد

ـ ماذا ، أي عد . .؟

ـ لقد أضفت وردة أخرى

كان منتبهاً لعدد الورود ، وربما قد عرِف جميع أسمائها . .؟

كما عرِف جميع أمنياتي ، فقد جاء في إحدى الليالي وهو يحمل بين ذراعيه النحيلتين صندوقاً كاد يهوي به أرضاً من ثقله . .

ـ ما هذا يا صلاح . .؟

ـ انتظري لحظة

ـ . . . .

ـ ما رأيكِ . .؟

ـ ما هذا . .؟

ـ ماكينة خياطة

ـ . . . .

ـ قد ابتعتها لكِ لتتركي العمل في المشغل ، فكانت أمي . .

دون وعي أطلقت نيراني بوجهه . .

صرخت . . وصرخت . . أخبرته إني لست بحاجة لأحد ، ولم ولن اطلب العون منه . .

كنت بصرخاتي ونيران ثورتي أخبئ خوفي وضعفي ، أحاول أن أبرهن لنفسي إني قادرة على شق طريقي لوحدي . .

لن أتعثر . . لن أحتاج لطفلٍ أن يمد يده لي . .

لكن ذلك الطفل ، بعد أن هدأت ثورتي وانزاح غبارها أجدني أفاجأ ببقائه . .

كان ما يزال واقفاً لم يهرب ، لم يخف أن تبتلعه عواصف غضبي . .

إنما بقي واقفاً يتحداني . .

ـ كانت أمي تعود من العمل متعبة منهكة ، وكنت دوماً أتمنى أن أشتري لها ماكينة تريحها من عمل المشغل ، وأنتِ كأمي أم . .؟

بهدوء عجيب راح يستأنف حديثه ، ثم نظر في عيني وهو ينتظر جوابي . .

ـ نعم . .

ـ . . . .

ـ صلاح . . كيف حالك يا بني . .؟

ـ . . . .

ـ متى ستعود من سفرتك . .؟

ـ . . . .

ـ حقاً . . هذا جيد

ـ . . . .

ـ سنكون بانتظارك يا بني

ـ . . . .

ـ رافقتك السلامة

(3)

أتخاف من الأموات...؟

ذراعي تحاول حجب النور عن عينيّ ،
ولكن دون جدوى ، سـقطت فوق نجمٍ
مضيء . . .

ـ ذراعي ما تزال موجودة . .

لم تمزقها أو تسرقها تلك الأيدي الخفية ، ولكنني أجد صعوبة في النهوض ، بعد أن صار الوجع يتعكز على جسدي ، غارساً عكازه بلا رحمة بين أحشائي . .

ـ من هناك . .؟

أرى طيفاً من بعيد أناديه فلا يتحرك أو يجيب . .

يجب أن أصل إليه ، علي أن أجد تفاسير لجميع ما يدور ويتزاحم في عقلي . .

أين أنا ، لماذا ، كيف ، ومنذ متى . .؟

رحت أشق طريقي بحذرٍ في زحمة الجو الضبابي ، متجنباً السقوط ، فلربما أكون قد امتطيت سحابة حبلى وسترمي بي ساعة المخاض . .

ليس ذا وجه ملائكي ، ولا أقدر أن أصفه كشرير ، لكنه ينام بعمقٍ وسكون . .

من عساه يكون هذا الرجل كي يوضع في مثل هذا النعش الملوكي . .؟ ولِمَ نحن الأثنين يجمعنا المكان ذاته . .؟

هل أنا في عالم الأموات . .؟

من قال إنه ميت يا عصام فربما هو نائم . .؟ وربما قد مات . .؟

بما أملك من قوة أزج بيدي لتعانق إحدى يديه ، وهي ترفض أن تكون كبش فداء . .

رجوتها ففشلت . . دللتها فازدادت عناداً . .

لم تترك لي سوى القسوة والتجبر ، فيدي التي لا تطيعني ما حاجتي بها . .؟

تعانقت الأيدي وانتصر حكم القسوة والتجبر . .

وتلى النصر خيانة بددت فرحتي . .

فتلك اليد اللعينة تطبق على يدي بصورة جنونية ، كمصيدة تقتات على أنين فرائسها . .

قواي تلاشت ، نسمات باردة صارت تدق عظامي بعد أن بدأت اليد الشريرة بسحب روحي . .

لم أعد قادراً على . .

لم أعد قادراً على . . على . .

ـ لم تعد قادراً على . . على ماذا . .؟

ـ ماذا . .!؟

ـ مؤكد كان كابوساً

ـ كابوس . .!!

ـ أجل كابوس ، أم كنت تنتظر زيارة الأحلام الوردية في المشرحة . .؟

ـ المشرحة . .!!

ـ ولكن ، لمَ أنت نائم هنا . .!؟

ـ أنا ، لا أعلم ، لا أتذكر . .

ولكن ما خطب هذا الرجل . .؟ لماذا تملّك الجنون عينيه ، والرعب تخلل نبرات صوته . .؟

ـ أتخاف من الأموات . .؟

صمت رهيب تملكني ، ورعشة جعلت من جسدي شجرة تحاول ابتلاعها الرياح . .

ـ ها . . ها . . ها . . ما بك يا رجل ، إني أمازحك ، لمَ يبدو عليك الخوف . .؟

يمازحني . .!! من هو ليمازحني . .؟ وهل المشرحة المكان المثالي لاختبار خفة دمه . .؟ لماذا دوماً أبتلى بالأغبياء وثقلاء الدم . .؟

ـ سيجارة . .؟

ـ شكراً . . لا أدخن

ـ هذا أفضل

ـ ولكن هل ستدخن هنا . .!؟

ـ وما الضير في ذلك . .؟ هل الدخان يضر بصحة الأموات . .؟ ها . . ها . . ها . .

عباراته السخيفة تتناسب مع تلك الضحكات الفاضحة لأسنانه القبيحة ، والتي صارت بيوتاً للسوس . . بيوت خربة توسطها بيت ذهبي لا أعلم ما الغاية منه ، إلا إذا كان لزعيم السوس . .

حمل سيجارة ثانية بين أصابعه غير التي تتوسط شفتيه ، وبدأ يتمشى بين زوايا المشرحة وهو يدندن مع نفسه ويتفحص كل شيءٍ بدقة عجيبة ومريبة . .

ـ هل مات لك أحد . .؟

ـ ماذا . .!؟

ـ أعني هل مات والداك . .؟ أو أحدهما . .؟

فاجأني سؤاله ، لم أتوقعه . .

فالّتزمت الصمت وأنا استرجع بعض الصور الضبابية العالقة في رأسي ثم قلت . .

ـ والدي . . مات والدي حينما كنت صغيراً

ـ هذا جيد يا رجل

ـ ماذا . .!؟

لم يمنحني وقتا لأتعمق برده الغريب ، وسدد لي سؤالاً آخر . .

ـ وهل ترك إرثاً من بعده . .؟

عدت لصمتي محاولاً هذه المرة إنهاء الحديث معه ، ولكن بلا فائدة ، فتلك السوسة كان الأجدر بها أن تلتهم لسانه ، حتى تريح الكون من أسئلته الغبية . .

ـ لمَ أنت صامت . .؟ لن احسدك يا رجل . .

ـ لا . .

ـ كم هو لئيم

فاض الكيل من حواراته الغبية وصارت براكين دمي تتفجر . .

نهضت نحوه كالمجنون فقبضت على رقبته ثم رطمت رأسه بالجدار ، روحه صارت تحشرج بين قبضتي وعيناه تحاولان أن تلتمسا السماح والعفو . .

كادت نفسي تلين وتخلي سبيله لولا أني لمحت مشرطاً ، فقررت أن أقتلع عينيه كي لا يجد بعدهما سبيلاً للنجاة . . .

ومع أول صرخة له وأنا أقتلع إحدى عينيه جاء صوت ليستوقفني ويمنعني من إتمام حفلة الانتقام . .

ـ كم هو لئيم . . كم هو لئيم والدي ، مات بعد أن ضيع جميع ما كنا نملك على ملذاته ، إذ لم يكن يهتم بأمر ابنائه ، أنا اشعر بك فمن المؤكد قد عشت حياة صعبة . . جمال زميلك الجديد في العمل . .

أنهى عبارته ، ليمد لي يده معرفاً عن نفسه ، وتاركاً يدي الآثمة تصافحه . .

ثم خرج وتركني بعيون جامدة ومشاعر مضطربة ونفس تنهال ضرباً بسياط غضبها على جلدي الشاحب ، وآلاف التساؤلات ترمي بسهامها نحوي بينما اقف كلوح بلا حراك أو شكوى . .

هل كان مجرد إنسان بسيط ، رجل فقير داست عليه الأرض وسكانها ، ولم يكسر . .؟

وظل يسخر منهم ، حتى لا يشعروا بنشوة النصر . .

ربما أني رأيت السوس الذي اتخذ من اسنانه نزلاً ، لكنني لم أرَ السوس الذي اتخذ من عقلي موطناً . . أرى الناس من منظار ضيق ، من جانب واحد . .

لا أمهلهم أن يكملوا عباراتهم ، أن يبوحوا بسرائرهم ، حتى إني لا أمهل نفسي أن تتقمص اشكالهم وتعيش حياتهم لدقائق . .

لثوانٍ ، كي أشعر بوجودهم ووجعهم . .

أنا يجب أن يكون الموجوع الوحيد ، أنا المسكين الوحيد ، وأنا هو الواعي والفاهم . .

الواعي والفاهم . .!!

تلك عبارات أمي التي تصف بها صلاح . .

هل يعني إنها محقة . .؟ هل يجب أن أتغير . .؟ هل يجب أن

أشعر بوجود من حولي . .؟

ـ نعم

ـ . . . .

ـ حسناً ، يا أمي . .

ـ . . . .

ـ لن اتأخر

ـ . . . .

ـ الى اللقاء . .

صلاح . . صلاح . . صلاح . .

لولا الأحمق صلاح لما رأيت الأحمق الثاني جمال . .

يبدو أني قسوت على نفسي كثيراً ، فذلك الأحمق هو الملام . .

كيف يصف والده باللئيم . .!؟

إن كان والده لئيماً فعلى ما يبدو قد ورّثه اللؤم . .

كفى عصام . . كفى لا تشغل نفسك بهؤلاء الحمقى . .

* * * * * * *

(مئة عام من العزلة) أجهل ما تخبئه بين صفحاتك ، لكن عنوانك يغمرني بالسعادة ، فيما تلوح من أمام ناظري خيالات ذلك الغبي وهو يختفي من حياتي في مئة عام من العزلة . .

يا إلهي مئة عام ، كم هو شعور جميل . .

ـ سآخذ هذه الورود ، و . . وتلك الوردة أيضاً

ـ احسنت الاختيار سيدي ، فإنها وردة مميزة . .

أعلم إنها مميزة وعلي أن أكون مثلها ، كي يبقى ناظرها لي وحدي واهتمامها بي فقط ، وعليها أن تدرك اليوم من هو أبنها الحقيقي . .

ها هي تتصل . .

ـ نعم

ـ . . . .

ـ لا لم أنسَ الموعد

ـ . . . .

ـ لا تقلقي ارجوك ، لن اتأخر

ـ . . . .

ـ حسناً ، الى اللقاء

قلقها يؤكد بأني لم اخسر أمي ، لم يستطع أحد أن يسلبني حنانها ، ولا يوجد مكان لدخيل بيننا . . .

يجب أن أسرع وأصل قبله وأستحوذ على كل اهتمامها ، ليكون عند وصوله مجرد نكرة يجلس إلى مائدة العشاء أو كشبح متطفل . .

* * * * * * *

ـ لماذا تأخرت . .؟

ـ آسف لم أستطع أن . .

ـ اترك اعذارك الآن ، ولتجلس مع صلاح إنه ينتظرك منذ ساعة

ـ حسناً ؛ ولكن قد جلبت لك . .

لم تنتظر أن اكمل حديثي واختفت بسرعة في المطبخ ، حتى إنها لم تلحظ باقة الورود التي احملها في يدي . .

مشيت بصمت نحو الزهرية ولكن . .!!

ـ تأخرت ، لقد سبقتك . .

جاءت كلماته من خلفي كسهام غدر يعلن بها نصره المزيف . .

يعلن عن فشلي . . تأخري . . وتميزه عني . .

قبل أن استدير نحوه استعرت قناع بهلوان ذي ابتسامة عريضة

بلهاء وفتحت ذراعي بشغفٍ متصنع كي أعانقه ، ومن اعماقي كنت أتمنى لو أنهما جناحا رخ ، فيحملانه ويرميان به في واد سحيق . .

ـ عصام كيف حالك يا رجل . .؟

ـ بخير ، وانتَ كيف حالك . .؟ إ . . اشتقنا لك .

ترددت في نطق العبارة الأخيرة ، خشيت أن أنال أعلى درجات الكذب فيلازمني هذا اللقب طوال حياتي . . لكن مشاعري لم تسعفني بأي عبارات غيرها ، ووجدت نفسي مجبراً على سرقتها من مشاعر أمي . . فهي عند غيابه تكرر قول (اشتقنا له) في اليوم الواحد أكثر من عشر مرات . .

لكن لِمَ كانت تتكلم بصيغة الجمع؟ هل حاولت جرّ مشاعري واقحامها في أمور لا تعنيها . .؟

أم كانت تعني روحها ، قلبها ومشاعرها ولم تفكر في الاقتراب من ممتلكاتي الحقودة . .؟

ـ ما بك يا عصام . .؟ لِمَ تلتزم الصمت ، أظن أني قد سمعت بشوقك لي . .؟

مرة أخرى يرمي بي في متاهة الاشواق المصطنعة ، وعلي الآن أن استعير قناع القريب المثالي والمحب لجميع اقاربه بشكل غير

طبيعي ، وكأنه مهووس أو مريض . .

وفي الحقيقة ما هو إلا منافق كبير . .

وها أنا الآن ، عصام المنافق الكبير . . ها . . ها . .

ـ ها . . ها . . ها . .

ـ ما الذي يضحكك . .؟

ـ اه . . لا شيء . . لا شيء مهم . . المهم كيف حالك وكيف كانت سفرتك . .؟

ـ كانت جيدة ، وانتَ كيف . .

ـ لمَ تلك الوردة تختلف عن الاخريات . .؟

ـ ماذا . .!؟

ـ تلك الوردة ، لمَ هي مختلفة . .؟

ـ اه تلك . . لم ألاحظها ، يبدو أن البائعة قد وضعتها بالخطأ

ـ حقاً . .

ـ أ . . أجل . .

أنا أكيد من أنك قد عنيت هذا الأمر ، رغم جهلي الغاية منه . .

ما الشيء الذي تبحث عنه يا صلاح . .؟ الى أين تريد أن تصل . .؟

كم تمنيت لو أنك تكشف أوراقك أو تجرد سيفك بوجهي لنخوض نزالاً شريفاً . .

إنما دائماً تبقى حواراتك من خلف الأبواب ، ونواياك خفية . .

وكأنك صندوق أسرار ويحيط نفسه بآلاف الأحجيات والـ . .

ـ أنظر ماذا جلبت لك

ـ ما هذا . .؟

ـ افتحه وستعرف ، هيا افتحه

ـ (مئة عام من العزلة) . .!! يا إلهي كنت انوي شراءها

ـ حقاً . . هذا جيد ، كنت متأكداً من أنها ستعجبك ، فهي رواية عظيمة

ـ هل قرأتها . .!؟

ـ بالطبع

ـ وعن ماذا تتحدث . .؟

ـ ها . . لا لن أخبرك ، عليك أن تعرف ذلك بنفسك ، كي لا تحرم من متعة قرأتها

ـ أنت محق

أجل أنا محق ، محق دائماً . .

كما إني محق في جلب تلك المميزة والتي ستعجز عن فك رموزها ، فتلك الوردة جعلت من حياتها حصناً منيعاً لا يتجاوزه أمثالك ، حتى لو مر مئة عام من التخطيط والتدبير داخل عزلتهم . .

* * * * * * *

ـ هل اساعدكِ . .؟

ـ لقد انهيت كل شيء ، والآن سأنادي عصام حتى يحمل الصحون . .

ـ . . . .

ـ عصام . . عصام . . عصام . .!!

ـ نعم

ـ تعال يا بني ، لتساعدني في حمل الصحون

ـ . . . .

ـ أنا سأساعدك

ـ ولكن ، يا بني أنت ضيفي الليلة

ـ أنا ابنك كل ليلة

ـ هذا أكيد

ـ . . . .

ـ سيجنني هذا الولد بعشقه للكتب

ـ ما الذي يقرأه . .؟

ـ مؤكد كلام في كلام لا يطعمنا أو يكسينا

ـ لا تحزني ، فما زال صغيراً

ـ حين كنت أصغر منه سناً ، كنت رجلاً يعتمد عليه ، أما هو . .

ـ لا تكملي ، أنا هنا لأجلك ، فاعتمدي علي في كل شيء . .

بتلك الابتسامة الملائكية واللمسة الحنونة والعيون التي تفيض حباً ، أعلن الليلة انتصاري وامتلاك قلب أمي . .

* * * * * * *

ـ عصام

ـ . . . .

ـ عصام . .!!

ـ نعم

ـ هل لي أن أسترجع الكتاب . .؟

ـ ماذا . .!! ولكن لماذا . .!؟

ـ والدتك يبدو أنها قد انزعجت من انشغالك به ، وإن علمت

أني من جلبته ستطلب مني أن استرجعه وتمنعني من جلب كتب اخرى ، وأنت تعلم بأني لا أستطيع أن ارفض لها طلباً . .

ـ ولكن هل ستخبرها بأنك من جلبته . .؟

ـ لا . . مؤكد لا . .

ـ جيد ، وأنا لن أخبرها أيضاً

ـ حسناً ، فلتتركه الآن ولننهض لنتناول العشاء ، قبل أن تثور براكين غضبها عليك

ـ سأضع الكتاب في غرفتي ، ثم الحق بك . .

* * * * * * *

ـ هذا كثير من سيأكله . .؟

ـ سيأكله النمل

ـ ماذا . .؟ النمل . .!!

ـ ها . . أنا آسف لم أعنِ ذلك ، أظن أني قد شردت قليلاً . .

بل إنك دائم الشرود ، تجالسنا بجسدك بينما روحك تعيش مع أناس آخرين . .

تمتلك عيني والدي الحائرتين التائهتين ، حينما كان يجلس ساعات من الصمت يلملم فيها افكاراً وقصصاً لم تملأ بطوننا شبعاً . .

كنت دوماً الاميرة فيها وهو الملك السعيد ، أما أميري وحصانه الابيض فكانا حاضرين في كل نهاية . .

في كل نهاية قصة في كل نهاية حلم في كل نهاية كذبة . .

أكاذيب كان يلملمها والدي في كل ليلة ، ليزينها ويجمّلها بالعبارات المزخرفة ، ويكسيها بعد ذلك بصوته الحنون . .

ومع شمس الصباح كنت أراها تتعرى وتسقط عنها قناع الجمال . .

أدركت حقيقة الحياة مبكراً ، أما عصام فلا أعلم متى سيدركها . .

اليوم . . غداً . . أم بعد غد ، أم إنه يرفض أن يدركها . .؟

هل اعتاد العيش في الاحلام . .؟

هل سيكون كأبي لا يطأ الارض أو يملك العنان . .؟

أم سيبقى مشغولاً بحياة ابطال القصص ومتناسياً حياته . .؟

متى سيعيش حياته . .؟ متى سأشعر أن تعبي لم يذهب سدى . .؟ متى . . متى . .

ـ الآن . .

ـ كيف . .!؟

ـ علي الذهاب الآن

ـ ولكن لم تكمل صحنك يا بني

ـ لم أعد أقدر . . شبعت

ـ حسناً ، سأرافقك الى الخارج

ـ . . . .

* * * * * * *

سأذوق أقسى طريقة للموت لو أني كنت مكانه ، فبفكيه الصغيرين وقضماته المتناهية في الصغر

سيحاول تمزيق جسدي ببطء شديد . .

ولكن هل النمل يعشق الافتراس . .؟

هل يفضل اللحم الطازج . .؟

هل سيأنس بوليمة طازجة على ألحان آهاتي وأناتي . .؟

ودمائي ماذا سيكون مصيرها . .؟

هل له القدرة على لعقها لحظة تدفقها بشدة واغراقها لصفوف جنده . .؟

هل سيردعه ذلك عن جمع جنده والهجوم مرة أخرى . . وأخرى ، حتى يصلوا الى شغاف قلبي وتمزيقه وصولاً الى مكنوناتي . .؟

وحينما يصنع من تعرجات دماغي أنفاقاً هل سيقرأ افكاري

ويكشف أسراري ثم يبوح بها . .؟

وهل . .

ـ أين ذهبوا . .؟!

قبل أن أحاول النهوض من كرسيّ إذ بأمي تقف أمامي بوجه عجزت عن تفسير نواياه ثم قالت . .

ـ تصبح على خير يا . . يا عصام

شعرت بتعقل الكرسي ورجاحته وهو يشدني طالباً مني الجلوس واتخاذ وضعية النعامة دافناً رأسي بصحن الطعام الذي امامي . .

لكن متى رحل صلاح . .؟ وهل فاتني الكثير . .؟

ما بك هل جننت . .؟ ما الذي سيكون قد فاتك غير (اشتقنا لكَ) و(اشتقت لكِ) . .؟

منذ أسبوع وهم يتخبطون بموجة من الاشواق . .

متى تطفئ نور غرفتها . .؟

قد بدأت اتخبط أنا الاخر بموجة اشواق لكتابي ، متى سيتسنى للنعامة رفع رأسها أم أن عليها الهروب متخبطة بين الجدران ، حتى الوصول لغرفتي . .؟

* * * * * * *

أحدهم يهامسني ولا أفقه ما يعنيه ، له أنفاس دافئة ويفوح منه عطر مميز ، وكأني أعرف هذا العطر لكن من هو صاحبه . .؟

لا أملك القدرة على فتح جفوني لأراه أو أسأله عن نوع العطر . .

العطر الذي بدأ يهرب ويرحل كوقع اقدام صاحبه التي بدأت ترحل ويتلاشى صوتها . .

شيئاً يتسلل الى داخل رأسي محاولاً النخر فيه ، وجموع من النمل تحتل جسدي لتصنع مملكة لها . . متخذة من رأسي عرشاً ، ومن صدري مرجاً يلعب ويقطع ويحفر به صبيانهم بلا رقيب . .

أصوات أجراس . .

إنها الحرب . .

سيعلن النمل الحرب على . .

ولكن على من . .؟ أنا لست العدو . . أنا . . أنا . .

ـ متأخر

ـ . . . . !!

ـ ما بك تنظر إلي . .؟ قد كنت تحلم كعادتك ، هيا انهض بسرعة ، فقد تأخرت عن العمل . .

(4)

هل يشعر بوجودك...؟

جَلست أمامه كلوحة جميلة ،
يطالعها ، يتأملها بإعجابٍ شديد ،
أرى انعكاسات صورته في عينيها وهو
يذوب كلما لامسته أناملها . . .

ـ يا ليتني كنت هو .

لا . . لا أتمنى ذلك ، فها هي تركته جانباً ولم تبالِ بمشاعره ، وبدأت عيناها تطارد غيره . .

من ذلك . .؟ من عساه يكون . .؟

تسير نحونا برفقته . .

ثم تعود للطاولة نفسها ، وتتعامى عن جلوس الأول بينهم . .!!

يا لها من مزاجية تركته هو الآخر . .!!

ونهضت تسير بعيداً عنهما ، ثم اختفت . .

طال غيابها هذه المرة ، ولا أظن أنها قد رحلت ، فحقيبتها تجلس في انتظارها . .

ـ ولكن . .!!

أي أحمق هذا الذي جلبته . .؟ ولمَ العناق والقبل . .؟

يا لجبروتها ، وتحاول حشره بين الأحمقين السابقين . .!!

لكن ما الذي شدها له . .؟

هل هي هيئته أم اسمه القبيح . .؟

قد عرفته منذ سنين ، وندمت على الوقت والمال اللذين أضعتهما عليه . .

علي أن انصحها ، أن أنقذها قبل أن تسقط في شراكه . .

أخطو نحوها بخطواتٍ متعثرة حائرة ، أخشى إن أنقذتها من ذلك الأحمق ، تعود لتختار أحد الأحمقين السابقين . .

ولمَ تختار احدهما وأنا هنا . .؟

أنتَ . .!! هل أنتَ يا عصام الأحمق الرابع . .؟

لا . . لا . . لم اعنِ ذلك . . أنا هنا لـ . .

ـ ماذا . .؟

ـ عفواً . .!!

ـ لماذا تقف أمامي . .؟

ـ آه . . عفواً آنستي

ـ . . . .

ـ عذراً ؛ لقد لاحظت حيرتك في اختيار احدهم

ـ . . . .

ـ هذان يبدوان لا بأس بهما ، لكن هذا ارجوك لا تتورطي معه . .

ـ ولماذا . .؟

ـ لأنه . . لأنه سيء السمعة

رن هاتفها ليقطع حوارنا ، ولتهرب مسرعة بصحبة سئ السمعة ، وتتركني . .

غير مكترثة لرأيي في كتابها . .

* * * * * * *

ـ آه . . كم أنا جائع

ـ أين كنت طوال النهار . .؟

ـ في المستشفى

ـ عصام . . أنت تكذب

ـ ماذا . .؟

ـ أخبرني صلاح بأنك لم تذهب للمستشفى ، أين كنت . .؟

ـ أسألي صلاح

ـ ولكن . . الى أين أنت ذاهب . .؟

ـ سأنام

ـ ألن تكمل طعامك . .؟

ـ شبعت

ـ متى تكف عن تصرفات الصبية . .؟

ـ تصبحين على خير

* * * * * * *

ببطء تلاشى الضباب الذي أحاط بي ، وكشف عن الجدران التي أسرتني . .

كل ما حولي يكسوه البياض ككرة من الثلج ، وجدران دافئة

ملساء ، حين داعبتها لم تلتهم يدي . .

لكن في إحدى زواياها شيء غريب ، مختلف ، ويبعث بإشارة لي . .

بدأ فضولي يدفعني نحوه ، يدفعني بقوة ، حتى أكاد أسقط على وجهي . .

فإذا به نافذة تطل على . . على . .

إنها هي . .!!

لكن من ذاك الذي تقف معه . .؟ مستحيل . . هذا جنون . .

ـ صلاح . .!!

كيف وصل اليها . .؟ كيف عرفها . .؟ لمَ تحيط نفسها بالحمقى . .؟

لوّحت لها ، محاولاً جذب انتباهها ، ولكن لم تلاحظني . .

بدأت اقفز وأصيح كبهلوان بليد يستجدي الضحكات ، فلم تشعر بوجودي . .

ثم اختفت ، واختفى كل ما حولي ، بعد أن سرى شيء غريب في عروقي . .

* * * * * * *

ـ هل أقدر أن أساعدكَ في شيء . .؟

ـ عفواً . .!؟

ـ ما اسم الكتاب الذي تبحث عنه . .؟

ـ الكتاب . .!! اه . . الكتاب ، هذا هو قد وجدته أخيراً

ـ هذا جيد . .

كالخريف رحت أسلب تلك الرفوف اوراقها ، ثم أكدسها على منضدةً بقرب ملاكي . .

واسأل نفسي هل يشعر بوجودي . .؟

افتعلت ضجة بإسقاط حقيبتي لعلي أحظى بنظرة أو إيماءة منه ، يخبرني فيها أنه يراني . .

لكن دون جدوى . .

لم أجنِ سوى اهتمام أمينة المكتبة . .

عجوز صاحبة نظرات حادة ، كمديرة مدرسة من الطراز الأول ، وبنظرة واحدة منها أصبحت أهدأ تلميذ لديها . .

لكن لا بأس بذلك ، فرغم رعبي منها ، إلا أني تأكدت من وجودي . .

من أنني مرئي . .

انحنيت ارضاً لألملم ما تبعثر مني خلال تجربتي الفاشلة ، فلمحت كتاباً ، التقطته ثم وضعته دون أن أفكر ، أمام ملاكي . .

ـ تفضلي

ـ . . . .

ـ هذا لكِ

ـ . . . .

لم تعرني أي اهتمام ، واستمرت بتصفح كتابها . .

يا لها من مغرورة . .!!

لا . . لا بل هو أسلوبي ، قد كان مبتذلاً ، علي أن اتمالك مشاعري وأكرر الحوار بأسلوب أفضل . .

ـ عفواً لقد رايتكِ البارحة ، واليوم تأخرتِ و . .

ـ هل أنتَ بخير . .؟

ـ ماذا . .!!

ـ ما الذي تريده . .؟

ـ أنا آسف ؛ ولكن أحببت أن أهديك هذا الكتاب

ـ ما هي المناسبة . .؟

ـ لقد اخترتِ البارحة كتاباً سيئاً و . .

ـ ماذا . .!!

ـ آسف ؛ لم اعنِ . . إنما هو كتاب . . كتاب . . كتاب سيء ، آسف لا أجيد المجاملات . .

ـ حسناً ؛ وماذا الآن . .؟ ماهي مشكلتك . .؟

ـ لا . . لا مشكلة لدي ، فقط أتمنى أن تقبلي هذا

ـ بكم ابتعته . .؟

ـ أنا لم أبتعه ، هو هدية

ـ إذاً لن أقبله ، فلربما كان من شخص عزيز عليك . .؟

ـ عزيز . .!! آه . . مؤكد إنه عزيز ، عزيز جداً ، فوق ما تتصورين

ـ إذاً فلتحتفظ به ، لأجل أن تذكره دوماً

ـ ها . . ها . . هو لا يمنحني فرصة لنسيانه

ـ (مئة عام من العزلة) . .!!

مئة عام من العزلة ، أجمل وأرق عزلة ، لن أنساك يا صلاح . . .

ركضت مسرعة بعد أن رن هاتفها ، ذلك الهاتف المزعج ، الذي يحاول دوماً إبعادي عنها ، وقبل أن تغادر المكتبة استوقفتها . .

ـ آنستي

ـ نعم . .؟

ـ أنا عصام

ـ أهلاً ، تشرفت بمعرفتك

سحبت يدها ، وهي ترمقني بنظرة تعجب ، وكأنها تقول (ابتعد عن طريقي) ، ثم استقلت سيارة أجرة لتهرب فيها ، وتنسى عطرها يغفو على خطوط يدي . .

لم أكن بانتظار تشرفها بمعرفتي ، انتظرت أن أحظى بإسمها . .

ذلك الاسم الذي يختبئ خلف أسوار حواراتها القصيرة . .

حينما نهوى شخصاً يختفي اسمه من جميع السجلات ، ولا يعود أحد ينطق به ، حتى لو كان همساً . . بل ويتآمر الكون ضدنا ، واضعا آلاف الفخاخ من حوله ، حتى نصله بنفسٍ مقطوع . .

رجعت الى المكتبة لأخذ حقيبتي ، فأرسلت لي أمينة المكتبة نظرتها الحادة والتي كان فحواها . .

(ما زال الوقت مبكراً على الرحيل ، فعليك أن تعيد أكوام الكتب الى أغصانها) . .

(5)

من يقدر على النسيان...؟

عطرهــا المميز الذي غفا فوق يدي من أول لمســة ، كان كفيلاً بجعلي مدمناً حبها ، غيــر قادر على منع نفســي من رؤيتها أو تعقبها كل يوم . . .

اقترفت خطايا بشعة ، خسرت الكثير من الأصحاب لأجلها ، ولم أندم . .

فرؤيتها عند الصباح تمدني بالقوة والتفاؤل ، وتشعرني أن لا قيمة لي من دونها ، فهي من صنعت السيد الثري الذي أنا عليه . .

النقود . . هي . . هي التي صنعتني . .

ابنتي وريثتي الوحيدة قد وصلت ، تستقل سيارة أجرة كالفقراء ، غير مبالية بسمعتي ، تعاندني في كل أمر لتسبب لي الازعاج . .

بالنكران صارت ترد جميلي ، صبري ، تضحيتي ، وتعبي وأنا أنحت مستقبلاً لها . .

رحيل والدتها قد خلق منها إنسانة أخرى ، وجعل مني عدوها الذي تحمّله كل الذنوب ، حتى موت أمها . .!!

لا أنكر أنها لم تفصح عن ذلك ، لكن تصرفاتها كانت كافية لتعبر عن ما يجول بفؤادها . .

علي أن استوقفها قبل أن تسجن نفسها داخل غرفتها كالمعتاد ، لتمنعني من رؤيتها بالساعات القليلة التي أتواجد بها في المنزل . .

ـ صوفيا

ـ . . . .

ـ أين كنتِ . .؟

ـ في المكتبة

ـ لم أتناول عشائي الى الآن

ـ . . . .

ـ هل تشاركيني . .؟

ـ أود النوم

ـ صوفيا ؛ انتظري . . لا تذهبي

ـ . . . .

ـ سأنتظرك على المائدة ، فلا تتأخري

ـ . . . .

* * * * * * *

ـ فستان جميل

ـ شكراً حبيبي

ـ . . . .

ـ هل أعجبكَ العشاء . .؟

ـ ممتاز

ـ لقد أشرفت على إعداده

ـ لمستك الانثوية واضحة . .

بعد وفاة والدتي بشهرين فقط ، فوجئت بجلبه هذه المانيكان لإقحامها في حياتنا ، ثم بعد ذلك يتخذ منها زوجة ، وقد فعل . .

لم يستطع أن يستمر طويلاً بتمثيل دور الزوج الأرمل والحزين على فراق زوجته ، فهذا الدور لا يناسبه . .

فهو لا يجيد إلا دور الزوج الخائن الذي جعل من حياة زوجته جحيماً . .

له عشيقات من كل شكل ولون ، وأموال لا تعد أو تحصى ، جعلت منه إنساناً شهوانياً كلما ارتقى سلماً من المتعة ملّ بسرعة ، وبدأ يبحث عن المزيد . .

واخيراً تزوج من شابة بعمري ، لا أعلم كيف ، وبأي طريق تعثر بها . .؟

كنت أصحو غالباً على بكاء أمي ، وهي تحاول كتمه ، حتى لا يسمعها أحد . .

كنت أتتبع عطرها وأنينها ، لأجدها تتخذ من إحدى زوايا المنزل محراباً تتلو فيه صلاة أحزانها ، وهي متكورة على نفسها ، فأندس كهرة ناعمة في حضنها . .

ـ أمي ؛ لماذا تبكين . .؟

ـ بلا سبب يا صغيرتي

ـ هل رأيتِ حلماً مخيفاً . .؟

ـ حلم . .!! أجل ؛ هو كذلك

ـ وهل يزورك كل ليلة . .؟

ردت على سؤالي بالصمت ، لكن سماعي لبكائها كل ليلة ، قد أجابني بأنه لم يكن يفارقها ذلك الحلم . .

ذلك الحلم الشرير ، الذي تجسد بهيئة أبي . .

ـ ألم يعجبكِ العشاء . .؟

ـ بلى ، لكني شبعت ، عن إذنكما

ـ صوفيا

ـ . . . .

ـ انتظريني في المكتب أود التحدث معكِ

* * * * * * *

ـ لم أجد سوى جثة امرأة

ـ . . . .

ـ أنا في المشرحة ، وقد تأكدت من ذلك

ـ . . . .

ـ إذاً ؛ ما العمل . .؟

ـ . . . .

ـ حسناً ؛ فلتنتظر مني اتصالاً

كيف لي أن أحصل على جثة رجل ، أن لا أضيع الفرصة . .؟
علي أن أتأكد مرة أخرى . .

ـ ما الذي تفعله هنا . .؟

ـ . . . . !!

ـ من انتَ . .؟ وما الذي كنت تفعله . .؟

ـ على رسلك يا رجل ، أنا أعمل هنا ، ألم نلتقِ مسبقاً . .؟

ـ أنتَ . . أنتَ . .

ـ جمال

ـ وما الذي كنت تفعله قبل قليل . .؟

ـ لا . . لا شيء ؛ القيت نظرة فقط

ـ أرجوك . . أرجوك لا تعبث مع الموتى

لا ارتاح لهذا الرجل ، فأساليبه مريبة ، أرى نفسي عاجزاً عن تقبله . .

أيعقل أن يكون هذا العجز ، هو السبب في رؤيته مريباً . .؟

ـ منذ متى وأنت تعمل هنا . .؟

ـ من حوالي سنتين

ـ هل تغيبت يوماً . .؟

ـ أجل

ـ هل ستتغيب هذا الأسبوع . .؟

ـ ولمَ تسأل . .!؟

ـ ها . . لقد كنت أعمل في مستشفى أخرى ، وتغيبت كثيراً ، لذلك تم فصلي

ـ حقاً . .

ـ أجل ؛ وقد عدت للعمل ، لأن لدي الكثير . . الكثير من المعارف

ـ . . . .

ـ ها . . ها . . لن تتصور كيف هرع الجميع يومها لخدمتي

يا ترى ما الذي يحاول أن يخفيه هذا الرجل خلف أكاذيبه الغبية وغير المتناسقة . .؟

ـ ماذا تكتب . .؟

ـ . . . .

ـ هل هي مذكرات . .؟

ـ . . . .

ـ أتعلم ، إني لا أجيد القراءة والكتابة ، والسبب هو والدي ، يبدو أن والدك قد اعتنى بك جيداً . .

ـ قد مات منذ كنت صغيراً

ـ اه . . حقاً ؛ لقد تذكرت

ـ ولكن كيف مات . .؟

ـ . . . . !!

لم يخطر ببالي يوماً أن أسأل نفسي أو أمي هذا السؤال . . (كيف مات . .؟)

أكان مريضاً . .؟ أتعرض لحادث . .؟ أم أنه قتل . .؟ قتل . .!!

لا . . لا أظن ذلك . .

لم تروِ أمي حكاية موته يوماً ،وأنا الآخر لم أقرأها ، لم تستهوني . .

يا ترى هل نسيته . .!؟

وهل نسيان من أحبونا منصف بحقهم . .؟ ومن يقدر على النسيان . .؟

لقد نسيته رغم صوره الضبابية ، وهو يحملني بين ذراعيه طابعاً على جبيني حباً وقبلةً ، كانا يودان أن أدين له بعدم النسيان . .

لكن من سمح للنسيان ببعثرة ذكرياتي وتشتيتها . . أنا . . أم أبي . . . أم . . ؟

* * * * * * *

ـ هي

ـ هي . .!! أترمي باللوم عليها . .!؟

ـ أجل ؛ هي أمك ، فقد كانت حساسة جداً وعاشقة للنكد و . .

ـ وأنتَ . .؟

ـ أنا . . أنا . . زوج خائن ، لا أنكر ذلك ، ولكن هي من أجبرتني

ـ ستبدأ بقراءة أعذارك الواهية . .؟

ـ ابنتي . .

ـ لا أحب سماع هذه الكلمة منك

ـ صوفيا ؛ لا تخرجي ، فأنا لم أنهِ حديثي بعد

ـ أما أنا فقد أنهيته . .

كنت سعيداً حين لقبتُ بالمحظوظ يوم زواجي بتلك الحسناء ، ورمقتني عيون الحسد والغيظ بنظراتها ولم أبالِ . .

لم أكن أعلم أن منحوتتي الجميلة صاحبة الصوت الجذاب تخفي في داخلها كومة من النكد والبكاء والصراخ الهستيري ، ولم

أكن أعلم بأنها اللبنة الأساسية التي تصاغ منها الأحزان . .

حياتي معها كانت عبارة عن عمل وهروب ، أعمل في النهار لجمع المال ، وفي الليل أهرب من رواياتها المأساوية التي أحالتني الى زوج خائن . .

لكنه زوج له أسبابه ، دوافعه في الخيانة ، لم يكن ليخونها من فراغ . .

وبعد رحيلها اكتشفت بأنها ورثت النكد لابنتها ، وللأسف هي أيضاً ابنتي . .

ابنتي التي لا أستطيع الهروب منها ، رغم نظراتها الحقودة ، وامتناعها عن مناداتي بـ (أبي) . . محاولةً التعود على غيابي وإخراجي من حياتها بشكل تدريجي . .

ـ يعقوب . . حبيبي ، تأخرنا على السهرة

ـ حبيبتي أنا متعب

ـ ولكن ؛ قد وعدتني

ـ سنذهب في وقت لاحق

ـ يعقوب . . أرجوك

ـ آسيا ؛ كفي عن الالحاح

ـ . . . .

ـ أنا آسف حبيبتي ، سامحيني فأنا حقاً متعب

ـ حسناً . .

كل ليلة تتعب ، وفي الصباح لا تموت . .!!

بدأت أخاف أن يمر العمر وتذبل زهرتي ، فأصحو ذات صباح ممرضة لكهل عجوز . .

متى اصير أرملتك . .؟

متى أحقق كل ما علقته على حائط أحلامي من أمنياتٍ مؤجلة تعبت وهي تنتظر جرة قلم فوق شهادة وفاة تحمل بين طياتها اسمك . .؟

(6)

هل ستغفر لهم...؟

كنت أظن حين ودعتني ، أنها أخذت معها حقيبة ذكرياتي ، المليئة بابتساماتها سحر نظراتها ، وعذوبة صوتها الحاني . . .

ـ صلاح . .!!

ـ . . . .

ـ كيف حالكَ . .؟

ـ مر وقت طويل على فراقنا ، من الجيد ما زلت تذكريني

ـ أنا لم أنسكَ يوماً

كعادتها حين تكذب ، يلوح بريقٌ في عينيها ، ليزيدها جمالاً وسحراً . .

لم أخبرها يوماً بذلك أو أحذرها من الكذب ، حتى لا أحرم من لحظة جمالها السرمدية . .

ـ وكيف حالكِ . .؟

ـ لا بأس ، أظنني بخير

لماذا عادت . .؟ ما الذي تبحث عنه بداخلي . .؟

كنت أخالها مجرد طيف عانقني ذات ليلة ، ولم يعد مرة أخرى لحضني . .

ـ عن إذنكِ

ـ صلاح . .

ـ نعم . .

ـ هل سأراك ثانية . .؟

ـ . . . .

ـ سأنتظركَ كل صباح في هذا المقهى

ـ سيكون انتظاراً بلا جدوى

ـ لكني سأنتظر

متأكدة من أن قلبك لم تلتئم جروحه ، لم يغفر لي بعد ، ولكن

كان لهجري أسبابه ، وأعذاره التي رفضت أن تسمعها . .

ترى هل ستسمعها يوماً . .؟ هل ستغفر لي . .؟

* * * * * * *

ساعات ثقيلة قد مرت ، وأنا آأمل عيني برؤيتها في المكتبة هذا الصباح ، ولم تأتِ . . .

أتحاول التدلل . .!؟ أم تحاول الهروب مني . .؟

لا . . لا أظن هذا ولا ذاك ، فلقاؤنا كان بسيطاً . .

مللت الانتظار ، فرحت أحصي خطواتي على الطريق ، حتى لمحتها في أحد المقاهي . .

تمسك بإذن أحدهم بإحكام ، ثم تشده لتطبع فوق شفته قبلة منها ، اظنه تألم . .؟ لكن قبلتها قد استحقت أن يفقد أذنه للحصول عليها . .

وجدت في نفسي جرأة ، لحظة شعوري بالغيرة من المشوه ذي الاذن الواحدة ، فقررت أن أقتحم مجلسهما ، قاطعاً عليهما الخلوة . .

ـ صباح الخير

ـ . . . .

ـ كيف حالكِ . .؟

ـ . . . .

ـ أيمكنني الجلوس . .؟

ـ . . . .

بعد أن قابلتها آخر مرة ، هل تعرضت لحادث أفقدها سمعها فلم تعد تجيب على تساؤلاتي . .!؟

لكني لن أتراجع ، وسأجلس غير منتظرٍ لردها . .

لم تبالِ بوجودي ، وأشغلت نفسها بقبلة طويلة مع صاحب الأذن الواحدة . .

ـ هل اعجبتكِ الرواية . .؟

ـ أي رواية . .!؟

أخيراً نلت اهتمامها ، فتركت المشوه جانباً ، وهو شاحب كفريسة مصاص الدماء . .

ـ مئة عام من العزلة

ـ اه . . أنتَ هو ، آسفة لأني لم أتذكرك

لم تتذكرني . .!! يا ليتها عادت لفريستها قبل أن تسمعني هذه العبارة . .

ـ إذاً لنتعرف من جديد ، أنا عصام

ـ وأنا . .

رن هاتفها اللئيم ليسرقها مني ككل مرة ،لكنها لم تستسلم ، ولم تلبِّ نداءه . .

ـ أنا أنتظر

ـ ماذا . .!؟

ـ اسمك

ـ اه ، آسفة ، صوفيا . . اسمي صوفيا

اسمها ، كان كاللمسات الأخيرة في لوحتها الفاتنة . .

اللوحة التي علقتها بين ذراعي ، وأنا أتباهى وسط حشود أعظم رسامي العالم . .

اللوحة التي رسمتها أصابع القدر ،لتهديها لي . .

اللوحة ال . .

زلت قدمي وهويت من فوق سحابة الأحلام ، بعد أن دفعت

نحوي صاحب الأذن الواحدة . .

ـ ما هذا . .!؟

ـ فنجان قهوة . .!!

* * * * * * *

ـ أسبوع مر على انتظاري ولم تأتِ . .!!

ـ لم اعدك بشيء

ـ هل هنت عليك . .؟

ـ . . . .

ـ صلاح ؛ لنفتح صفحة جديدة

ـ والصفحات القديمة ، أستمزقينها أم تحرقينها . .؟

ـ ما زلت أحبك ، فلنعد سوية

ـ الآن . .!! مستحيل

ـ ولم المستحيل . .؟

ـ قد أصبح يروق لكِ الدور الذي تمثلينه عليه . .

ـ لا . . لا يروق لي ، إنما أحتاج وجوده ، كما أحتاج لوجودك أيضاً في حياتي . .

ـ يا لكِ من أنانية . .!!

ـ أنا أفكر بعقلي وقلبي معاً

ـ . . . .

ـ صلاح ؛ هل سنفتح صفحة جديدة . .؟

ـ علي الذهاب الآن

* * * * * * *

ـ صدفة جميلة . .

ـ عصام . .!!

ـ هل تنتظرين قدوم شخص ما . .؟

ـ لا . . لا أنتظر أحداً ، تفضل

ـ أتأتين الى المقهى كل صباح . .؟

ـ أحياناً

ـ لم أركِ في المكتبة منذ . .

ـ أسبوع . . منذ أسبوع لم أذهب الى . .

ـ لكني أراك كل يوم

ـ عفواً . .

ـ أراك كل يوم في أحلامي

ـ . . . .

وجهت لي نظرة غريبة ، حاولت من خلالها الغوص الى أبعد نقطة في داخل أعماقي ، تاركة هاتفها اللئيم بعدما كانت تتصفحه بشكل عبثي . .

ـ لكنكِ مختلفة فيها ، عن ما أنتِ عليه الآن

ـ مختلفة . .!!

ـ عيناكِ دائمتا الحزن والشرود ، نحيلة ، ووجهك شاحب

ـ لماذا . .؟

ـ لا أعلم ، لكن هناك شيء مميز لم يتغير بكِ ، أذكره بوضوح كما لو أنه حقيقة . .

ـ وهو . .؟

ـ عطركِ

ـ هل حاولت أن تجد تفسيراً لأحلامك . .؟

ـ الأحلام لا تفسر إلا بالأحلام

ـ كيف . .!؟

ـ دوماً نفسر أحلامنا على أساس أمنياتنا ، وما الأمنيات إلا مجرد أحلام

ـ يبدو أنك فيلسوف

ـ وعاشق

ـ علي الذهاب الآن

ـ هل سأجدك هنا في الغد . .؟

ـ فلتترك ذلك للصدفة

لن أترك الصدفة لتطرق بابي وتناديني ، إنما سأسرها وأستعبدها ، حتى تلقي بتعويذة سحرها في كل طرقات المدينة ، فلا يمر يوم دون أن أراك . .

* * * * * * *

ـ كنت على يقين ، بأنكَ ستأتي

ـ . . . .

ـ هل فكرتَ بالأمر . .؟

ـ أنا موافق

ـ حقاً ، يا صلاح . .!؟

ـ لكن بشرط

ـ شرط . .!! وما هو شرطك . .؟

(7)

كيف رحلوا...؟

الأحلام ، هــي تلك الأشــباح الهاربة من نافذة الليل لتندس في أســرتنا ثم تتسلل ببطء داخل العقول ، كاشفة عن أحاســيس وافكارٍ قد لا ندرك وجودها في صحوتنا . . .

ـ جميل

ـ هل أعجبكِ . .؟

ـ جميع كتاباتك قد نالت أعجابي

في نظرتها حزن عميق ،لم أجد له تفسيراً ، ولا لهذا الحلم الذي يبقيني حبيس المكان نفسه . .

يبدو أن حلمي كطير صغير لا يقوى على التحليق أو التنقل ما بين الأغصان . .

ـ عصام

ـ نعم ؛ صوفيا

ـ تأخرت ، علي الرحيل

ـ ولكن كيف ستخرجين . .؟ ألهذا المكان منفذ . .؟ أله باب . .؟

ـ بالطبع ، ذلك هو . . ألا تراه . .!؟

ـ أين . .؟ أين . . أين . .

* * * * * * *

ـ لماذا تفتح الباب بهذه الطريقة . .؟ هل أنت مجنون . .؟

ـ أجل ؛ أنا كذلك

ـ وما الذي تريده أيها المجنون . .؟

ـ أريد نصيبي

ـ لا نصيب لك عندي

ـ أتسرق نصيبي ، يا يعقوب

ـ لم تلتزم بشروطي

ـ ولكن . .

ـ انتهت الزيارة

ـ ستندم يا يعقوب . .

ـ ارموه خارجاً

ـ ستندم ، ستدفع الثمن غالياً . .

* * * * * * *

ـ بيتكَ جميل

ـ كان ليصبح بيتكِ يوماً لو لم . .

ـ صلاح ؛ أرجوك لا تكمل . .

ـ حسناً

ـ ألم تمل الوحدة . .؟

ـ لا . .

ـ . . . . !!

ـ أحياناً تكون الوحدة أأمن من الحرية ، التي تقبع خلف هذه الجدران

* * * * * * *

مرت شهور ثلاثة ، وهي تشرق كل يوم في صباحي ، وهي تهرب من نظراتي . .

وهي ترفض أن أبوح بحبي . .

هل هي علاقتها مع أبيها كونت لديها عقدة من الرجال . .؟ أم أن في قلبها شخصاً آخر . .؟

ـ ها قد وصلنا ، تفضلي

ـ . . . .

ـ أمي . . أمي . .

ـ أهلاً بني

ـ أعرفكِ ، صوفيا

ـ أهلاً . . أهلاً يا ابنتي ، تفضلي

ـ شكراً

ـ إذاً . . أنتِ هي . .

ـ هل حدثك عصام عني . .؟

ـ لا . . لكن كل شيئاً فيه قد صار يتغير ، لأجل شخص ما . .

ـ أمي ، ألن تقدمي شيئاً لضيفتنا . .؟

مقاطعاً لها قبل أن تسترسل وتبوح بحبي . .

حبي الذي علي أن أبوح به بنفسي . .

لن أرضى أن يقوم أحد بدوري هذه المرة ، ولن أرضى أن ينطق أحد بلساني . .

فأنا إنسان ، كيان ، لي شخصيتي ، وأنا من سيرسم خريطة حياتي . .

ـ كل هذه كتب . .!! يبدو أنه هوس . .

ـ جنون ، هو جنون برائحة الحبر ، يلبسك أقنعة من شتى الأنواع ، ويهبك جناحي طائر . .

يأخذانكِ الى ما بعد حدود الخيال . .

ـ جميل

ـ لكنه لا يفوقك جمالاً . .

ـ من هي صاحبة الصورة . .؟

تهرب كعادتها ، بطرحها أسئلة فرعية أو حتى غير منطقية . .

ـ حبيبتي

ـ . . . .!!

ـ أضع صورتها قرب السرير ، ليكون وجهها آخر ما أراه قبل أن

أمتطي بساط أحلامي . .

تحولت الصورة في عينيها لثعبان ماكر كاد يدس سمّه في عروقها ، لولا أن غضبها كان أسرع من مكره ، فرمت به فوق سريري وتوجهت للخروج من الباب مسرعة ، فأمسكت بذراعها . .

ـ أتعلمين ، أن الغيرة قد زادت من جمالك

ـ أنتَ أحمق

ـ أمن يضع صورة لوالدته يكون أحمق . .؟

ـ ولكنها . .!!

ـ أمي ؛ كانت يوماً شابة

* * * * * * *

هذا المساء أهدتني والدتي مدونة أنيقة ، ذات غلاف ذهبي وهي تقول . .

ـ لتكتب فيها قصة جميلة

ما الذي حدث . .!؟ أتغيرت حياتنا . .؟ أم تغير ما في النفوس . .؟ أم هو حديث صوفيا عن أمها الذي كان يزيد من حبي لأمي . .؟

أمي التي صارت تجمعني معها ساعات من الاحاديث الجميلة والضحك المستمر ، بعد أن غابت عن منزلنا البراكين والعواصف ، كما غاب صلاح لسبب مجهول . .

لم أره منذ زمن ، وكأن خفافيش الليل قد خطفته . .؟

أحببت فكرة غيابه ، صرت أملأ قلب أمي وحياتها دون شريك ، وكم يسعدني حين ينقضي اليوم ولا تسأل عنه . .

لكن ما الذي يشغله . .؟ ولماذا يتغيب عن العمل . .؟ لماذا . .

ما خطبك يا عصام لمَ تشغل نفسك بالتفكير به . .!؟ أليس هذا ما كنت تتمناه . .؟ أم أنك لا تقدر أن تنهي حياتك دون وجوده فيها . .؟

أستقضي نصف عمرك تتمنى رحيلهم ، والنصف الآخر تتساءل كيف رحلوا ، وفي النهاية تجد نفسك قد قضيت عمرك كله وأنت تفكر فيهم ، وناسياً حياتك . .؟

* * * * * * *

ـ ستسافر . .!؟

ـ أجل ، أخبرتكِ بهذا مسبقاً

ـ لم أتصور أن يكون بهذه السرعة . .

ـ . . . .

ـ وهل ستتركني . .؟

ـ . . . .

ـ فلتترك هذه السيجارة جانباً وأجبني ، هل ستتركني . .؟

ـ ما بكِ ، أنسيتي شَرطي . .؟

ـ لم أنسَ ، لكن ظننت سيكون على الأقل سنة

ـ سنة أو ثلاثة أشهر ، ما الفرق ما دام بقائي معكَ مؤقتاً . .؟

ـ الفرق . .!! الفرق إني لم أعد قادرة على التنفس من دونك

ـ وهو . .؟

ـ هو . . هو تاجر السعادة ، الذي بمفاتيحه السحرية يشرّع لي كل الأبواب الموصدة

ـ وأنا . .!؟

ـ أنتَ ، أنتَ الحب ، الشباب ، الأيام التي لا تنسى ، والأحلام التي لا تكف عن مناداتي

ـ إذاً ؛ من منا تختارين . .؟

أريدك ، لكن لا أريد السقوط من هذا البرج العالي . . علي أن . . أن . . أن . .

ـ أقتله

ـ ماذا . .!؟

ـ سأقتله ، سأقتله وستساعدني في ذلك

ـ هل جننتِ . .!؟

ـ أن قتلناه لن أخسر كل شيء

ـ أنا طبيب مهمتي إنقاذ الأرواح لا قتلها

ـ لكنك ستنقذ روحي المعذبة

ـ هذا جنون

ـ الجنون هو إن تركتك ترحل بعيداً عني ، أرجوك يا صلاح ، أرجوك ساعدني . .

ـ مستحيل ، مستحيل أنا لست قاتلاً مأجوراً

ـ قاتل مأجور . .!!

ـ اهدئي ، اهدئي ، ولتنسي الأمر برمته

ـ . . . .

ـ إنسي كل ما حصل بيننا ، وكأننا لم نلتقِ ، وعودي لحياتك السابقة ، ومع الأيام ستنسيني

ـ أنساك . .!! أأنت أكيد من ذلك . .؟

ـ آسيا ؛ أنا أكيد من أنكِ امرأة قوية

ـ أجل ؛ أنا امرأة قوية . . قوية . . قوية . .

(8)

لماذا عاد الآن...؟

بصعوبــة أســير بيــن الأزقــة المتعبة كســاكنيها ، وأنا أتعثر بشــبح طفولتي الحافــي القدميــن المتخــذ من أحد الجدران وســادة يخبئ فيهــا دموعه ، بعد أن سخر الأولاد من دميته مقطوعة الذراع ، والتــي حصل عليها من أكوام القمامة . . .

ها هو الباب بلونه الأخضر الشاحب ،لم أته عنه ،رغم الشيخوخة التي زادت من شقوق وجهه . .

ـ آسيا . .!!

ـ من الجيد أنك ما زلت تعيش هنا

ـ والى أين سأذهب برأيك . .؟

ـ هل ستبقيني واقفة عند الباب . .؟

ـ آسف ؛ تفضلي

ـ ما كل هذه الفوضى . .؟ أي مكب نفايات تعيش فيه . .؟

ـ لقد اعتدت على ذلك

ـ يبدو هذا واضحاً

ـ أتشربين الشاي . .؟

ـ ألا يجب عليك غسل القدح أولاً . .!؟

ـ ما الحكمة من غسله ما دمت سأسكب فيه الشيء ذاته . .؟

ـ . . . . !!

ـ ماذا ، ألن تشربي . .؟

ـ مؤكد لا . .

ـ كما تحبين

ـ هل ما زلت تتاجر بالجثث . .؟

ـ ليس كالسابق

ـ . . . .

ـ أحياناً اتذكر المرة التي كشفتِ فيها سري ، وأتساءل لماذا لم تخبري أحداً . .؟

ـ الجائع لا يشعر بجوعه إلا من كان مثله

ـ وبعد أن شبعتِ . .؟

ـ ومن قال إني شبعت . .؟

ـ آسيا ؛ ما سبب زيارتك . .؟

ـ . . . .

ـ أتودين أن تشتري جثة . .؟

ـ بل أود بيع جثة

* * * * * * *

ـ هو مختلف

ـ حقاً ، وما الذي يؤكد لك ذلك . .؟

ـ إحساسي

ـ الأحاسيس لا تكفي لنثق بالبشر ، فقد تكذب احياناً وتخدعنا

ـ ولكن عصام . .

ـ مؤكد كمن سبقه ، غايته فقط الوصول لثروتك

ـ كل شيء لديك الثروة ، المال ، شوهت صور من حولي ، أفقدتني الثقة بالجميع . .

ـ أنا . .!!

ـ تسلطك ، عشقك لأموالك ، وذكرياتك مع أمي ، خلقت مني

انسانة ضعيفة ، ترى كل من حولها مجرد وحوش . . وحوش تحاول تحطيم كيانها الهش والرخو . .

ـ أأصبحت متسلطاً لخوفي عليكِ . .!؟

ـ لم يكن خوفاً ، إنما . .

ـ حب نابع من صميم قلبي ، صدقيني

ـ . . . .

ـ سأكون في انتظار ذلك الشاب مساء الغد ، بلغيه أن لا يتأخر فلن أنتظره طويلاً

ـ أأنت جاد بهذا ، يا أبي . .!؟

ـ أبي . .!! ، يبدو أني مدين لذاك الشاب بالكثير . .

* * * * * * *

ـ أين انتِ . .؟ سنتأخر عن السهرة

ـ أنا هنا . .

ـ ولكن ؛ ما هذا . .؟

ـ لن أذهب

ـ أهناك خطب ما . .؟

ـ لا يا عزيزي ، ما من خطب

ـ طيب ، لمَ لا . .

ـ هيا . . كف عن الأسئلة ، ستتأخر

ـ وأنتِ . .

ـ مممم ، أظنني سأنام . .

كانت تهم بترك طاولتها بعد أن سئمت انتظار أحدهم حين رأيتها أول مرة ، قررت لحظتها أن أمتلك ذلك المخلوق الجميل وأضيئ سراج عمري من بريق عينيه . .

البريق الذي اختفى بعد أشهر قليلة من امتلاكي له ، ليختبئ في سبات عميق . .

وهذه الليلة يبدو أنه قرر العودة ، والتربع على عرش عينيه . .

لماذا عاد الآن . .؟ وما الذي تخبئه عيناك يا آسيا من أسرار . .؟

* * * * * * *

هذا هو المنفذ . .

متأكد من ذلك ، فقد رأيت صوفيا وهي تمر من خلاله ، ولكن لماذا لا يسمح لي بالمرور . .؟

هل استمالته بعطرها الجذاب ، لتجعل أقفاله تلين وتتهاوى . .؟

ما تلك الأصوات . .؟ أسمع تراتيلَ حزينة يرافقها عزف كمان ،

بدأت الأصوات تقترب أكثر وأكثر ، حتى لم يعد يفرقنا سوى الباب . . الباب . . الباب . .

صوفيا تتصل . .!!

ـ صوفيا . .

ـ . . . .

ـ آسف ، لقد كنت نائماً لم أسمعه

ـ . . . .

ـ ماذا . .!؟

ـ . . . .

ـ مؤكد ، لن أتأخر

ـ . . . .

ـ الى اللقاء

كم كانت قاسية بوصفها الصورة التي نسجتها له . .

يا ليتها تدرك الآن أن ما صورته كان وهماً ، وأنه كان مجرد أب محب وحنون ، غايته في الدنيا فقط إسعادها . .

* * * * * * *

ـ أهناك ضحية جديدة . .؟

ـ ضحية . .!! ، من تعنين . .؟

ـ قد سمعت ما دار بينك وبين والدك منذ قليل ، وأيقنت أن هنالك ضحية جديدة

ـ أنا لا افهمك . .

ـ ذلك الشاب الذي ستجلبينه الى هنا ، ليكون ضحية والدك

ـ . . . .

ـ لم يخدعك أحد من قبل ، لم يكذبوا عليك ، الجميع قد أحبوك بصدق ، بينما كان والدك يلهو بكم كالدمى جاعلاً نهاية كل قصة تمثلونها الفراق

ـ أنتِ كاذبة والدي لم . .

ـ ها . . ها . . لم أكن أنتظر منك غير هذا الجواب

ـ . . . .

ـ أنا مثلكم صرت ضحيته ، فالكأس الذي تجرعته والدتك ، كل ليلة بدأ يملؤه لي . .

ـ أتعنين أنه يخونك . .؟

ـ لم ألمس شيئاً بيدي هو مجرد إحساس ، إحساس قاتل ، نيران تتغذى على عذابنا وآهاتنا . .

لكن كيف سمحتِ له أن يخدعك بهذه السهولة . .؟ كيف صدقتِ أن ذلك الوحش بلمح البصر قد صار ملاكك الحارس . .؟ يستحيل أن يكون ملاكاً . . يستحيل ، عفواً هل لي بمنديل . .؟

ـ اه . . أجل ، تفضلي

ـ أنا آسفة ما كان علي أن أخبرك بذلك ، كان الأجدر أن أتركك تعيشين اللحظات السعيدة

ـ وبعد أن تنقضي . .؟

ـ ستصحين على واقع مرير

* * * * * * *

ـ ستندم ان أسمعتني صوتك مرة أخرى

ـ . . . .

ـ صباح الخير حبيبي

ـ صباح الخير

ـ من كان المتصل . .!؟

ـ شخص مزعج

ـ هل كان ذلك الشاب . .؟

ـ أي شاب . .!؟

ـ ضيف صوفيا

ـ آه صوفيا ، وقصصها التي لا تنتهي . .

ـ قصة حب جديدة . .؟

ـ ونهايتها على يدي

ـ بالأسلوب المعتاد ، التهديد بالموت تان . . تان . . تا . .

ـ لا . . أظنني هذه المرة سأحتاج لأسلوب أقوى

ـ الموت . .!؟

ـ تمني الموت

ـ أراك قد بدأت تبالغ في حرصك ، هل نسيت بأنها لم تعد طفلة وصار لها الحق في اختيار حياتها . .؟

ـ طفلة . . ما زالت طفلة ، ولا تجيد الاختيار ، ثم لا وجود لحياتها ، كل ما هنا هو ملكي ، أنا الوحيد الذي يحق له القرار ، وأن تركت الأمر لها فمؤكد ستضيع ثروتي . .

* * * * * * *

ـ هل تأكدتِ الآن ، من صدق حديثي . .؟

ـ أي حديث . .؟

ـ رأيتكِ تقفين خلف الباب ، وأنا أحدث والدك

ـ . . . .

ـ ولكن أتعلمين يا صوفيا ، رغم قسوته إلا أنه يحبكِ وحريص على حياتكِ . .

ـ حياتي أم حياته . .؟

* * * * * * *

عيناها تتفحصاني ،فيما أناملها تداعب خصلات الشعر الكثيف ، تتفحصني بشكل فوضوي غير منسق كمداعباتها الفوضوية ، التي جعلت من هرتها أشبه بالساحرة الشريرة في قصص الأطفال . .

يبدو أن الهرة قد انزعجت من نظراتنا المشمئزة لما آلت إليه ، بعد المداعبات العبثية لخصلات شعرها الرمادي اللون ، فقفزت بعيداً وهي تطلق مواءها التحذيري . .

ـ أأنت عصام . .؟

ـ أجل سيدتي ، أنا هو . . وهذه والدتي

عن يميني جلست والدتي . .

هي الأخرى تنظر بشكل فوضوي لكل ما حولها . . وكأنها توثق اجتماعاً مهماً ، ولا تملك سوى خمس دقائق قبل أن يطلبوا منها الرحيل . .

فهي تعيش دور الصحافي النشيط ، المنهمك في البحث عن الأخبار الطازجة . .

ـ زوجي يعقوب

مشيرة بأصبعها نحو صورة كبيرة تحتل مساحة لا بأس بها من الحائط الذي يقف أمامنا . . بعد أن لاحظت نظرات أمي وهي تتفحصها منبهة بذلك لوجود زوجته . .

ـ عفواً ؛ أين صوفيا . .؟

ـ إنها متعبة . .

ـ قبل قليل اتصلت بها ، ولم تكن تشكو من شيء . .!!

ـ أظنها ستموت . .

برودة الأعصاب ، التي امتلكتها هذه المخلوقة العجيبة ، جعلتني أقفز من مكاني كالمجنون صارخاً بـ . .

ـ كيف . .!؟

ـ لمَ تصرخ . .؟ أأنت مجنون . .؟

ـ أين هي . .؟ علي رؤيتها الآن . .

ـ بجانبك ، هل أنتَ أعمى . .!؟

ـ أمي . .!! ما بكِ يا أمي . .؟ هل تسمعينني . .؟

* * * * * * *

ـ لا تقلق بني ، أنا بخير

ـ هل أتصل بصلاح . .؟

ـ لا . . لا داعي لذلك ، فأنا بخير الآن ، يبدو أن أمك قد صارت عجوزاً . .

ـ عجوز . .!! مستحيل انظري لهذا الجمال والشباب المتجدد الـ . .

ـ أصبحت تتقن المجاملات ، تلك الفتاة قد غيرتك . .

ـ هذا الدواء سيقلل من الألم ، ويساعدك على النوم سريعاً . .

ـ وأنت ، هل ستنام . .؟

ـ سأتصل بصوفيا أولاً لأعتذر منها ، وبعد ذلك سأحلق بأحلامي معها . .

- . . . .

- تصبحين على خير

- عصام . .

- نعم يا أمي . .

- أخشى عليك أن لا يقوى جناحاك على حمل أحلامك ، وتهوي معها إذ هوت ، الأسلم أن تحمل ما خف منها فإن ضاعت أكملت تحليقك . .

- ليس بعد اليوم يا أمي ، لا عشت إن هوت . .

(9)

أتخشى الموت...؟

جسم نحيل ، ولون خمري ، ومداعبات
ناعمة توسدت ذراعي ، يا ليت لو طال
بقاؤها بقربي . . .

لكن شيئاً ما قد أرقها وأشغلها ، فقررت هجري ، وراحت تسير بخطواتٍ متعثرة ، ثم سقطت فوق السجادة لتتيه بين نقوشها ، ولأتيه من بعدها وأنا أبحث عن أي شيء ، أتفه شيء يسليني . .

بعد رحيل تلك النملة المزاجية . .

تمر دقائق الصمت ثقيلة ومملة ، وكلما رفعت رأسي فيها ، أجد يعقوب يحدق بي ، كأنما يحدق في فراغ ، فأعود مجبراً لرمي نفسي في دوامة التيه التي لا أعلم متى ستختفي . .

ستختفي الآن ، فها هو ينهض ، ويسير باتجاهي . .

اخيراً قد رآني ، صار يراني . . يراني . . لا يراني . . لا يراني . .

فقد أنعطف في سيره ، ثم خرج غالقاً من خلفه الباب ، من يحسب نفسه . .؟

ألا يعلم من أكون . .؟

ـ من أكون . .!؟

أنا . . أنا . . أنا سأسامحه هذه المرة وأتناسى ما قد حصل ، سأعطيه فرصة . .

ـ لكن فرصة واحدة ، وأخيرة . .

قد طال غيابه . . أيعقل أنه نسيني . .؟ أم نام فجأة . .؟ لا . . لا . . أظنه قد مات . .

ـ يا لجمالها . .!!

أسرتني لوحة علقت على أحد الجدران ، جارية أقل ما توصف بأيقونة للجمال ، اقتربت منها لأفتن بجمالها أكثر ، جمالها الذي اختفى بسرعة مخيفة ، وكأنها لوحة شيطانية . .

عيون لوزية ناعسة تحولت لجاحظة يتطاير منها الشرر . .

وشفاه كرزية لأجلها لو خيروا العطش أن يكون ارتواء سيأبى أن يكون إلا عطشاً ، تغلظت وانتفخت وبدأت تعلوها شعيرات دقيقة ومتفرقة . .

والوجه الملائكي المنحوت صارت له انطواءات تتهدل من أسفل الذقن لتنام على ياقة قميصها . . وشامة كانت تزين الخد الأيسر تضخمت وامتلأت ، كبطن حامل في شهرها الأخير أو أنها بداية لإنبات إصبع ، إصبع أجهل ماذا ستكون وظيفته لو نما أكثر . .

شعر أسود كالليل ، وطويل كعذاب ساهريه ، قد أختفى هو الأخر كاشفاً عن صحراء جرداء تحفها من الجانبين اطلال بساتين شائبة ،لا ثمر فيها . .

والقوام الممشوق صار بطناً ، بطن كبيرة ابتلعت الصدر والخصر ، لتتدلى منها ساقان قصيرتان ونحيلتان بعض الشيء ، تلك البطن العجيبة جعلتني أظهر تعاطفاً مع الساقين اللتين تعانيان من تقسيمها الجائر . .

أما الصوت فلم أسمع من قبل صوت تلك الأيقونة ، لأحكم على ما آل إليه صوتها ، لكن الصوت الذي جاءني كان جهورياً لا يليق بتلك الجميلة ، إنما بالكائن الذي صارت عليه . .

ـ لماذا تقف هنا . .؟

إنه صوت يعقوب جاء لينبهني الى وقوفه أمامي . .

لينبهني بأن اللوحة علقت على باب ، ولم يتغير فيها شيء ، وبإنه كان ذلك الكائن . .

ـ أنا آسف سيدي ، لقد كنت . .

ـ أبتعت هذه اللوحة بمليون دولار

ـ هل الرسام متوفى . .؟

ـ امممم ، أظن ذلك

مؤكد أنه كذلك ، لو كان حياً لما ابتعتها بأي ثمن وقد لا تنال اعجابك حتى . .

لماذا نقدر الفن حين رحيل صاحبه ، وحين يكون بيننا لا نعيره أي انتباه . .؟

عند وفاته نصبح جميعاً مثقفين ومن أشد المعجبين بفنه ، ويكون هو الفنان الراقي ، المبدع ، الـ . . الـ . . الـ . .

مجرد شعارات ، مجرد كلام ، لا يعود له معنى ، إذ لم نعمل على رسم ابتسامته وهو حياً . .

فلن نرسمها لو غاب عنا . .

نبحث عن التميز لأجلنا وليس لأجله . .

نلهث وراء آخر لوحة رسمها قبل أن يموت . .

آخر ما كتب قبل أن يموت . . وآخر . . وآخر . .

ليس تقديراً له أو لفنه . .

إنما تقدير لغرورنا ، لأنفسنا . .

ـ تفضل سيدي . .

لحظة دخول الخادم وهو يحمل فنجانين من القهوة ، علمت بوجود باب آخر لهذه الغرفة . .

غرفة المكتب هذه تتميز بالغموض كصاحبها ، حيث لها أربعة أبواب . .

باب دخل كلانا منه وهذا يفتح على غرفة استقبال الضيوف ، وباب دخل منه الخادم وأظنه يؤدي الى المطبخ ، أما الذي احتضن اللوحة فيطل على غرفة نوم ، والباب الأخير لم أتشرف بمعرفته بعد . .

بدأ يدخن السيجارة ويحتسي القهوة بكل هدوء . .

أما أنا فأنتظر أن تحتسيني قهوتي ، لأغرق تحت سحابة رغوتها ،

ثم أمتزج مع بقايا قعر الفنجان ، فأُكون خزعبلات كاذبة تتلوها قارئة فنجان تجيد الرقص على الوتر الحساس . .

تحاول . . وتحاول . . ولكنها تفشل في احتسائي ، خانتها قواها ، بعد أن سيطرت عليها فكرة أني قد أسمّها . .

أما أنا فصرت أرى يعقوب يقف على حافة فنجاني واضعاً السم فيه وهو يغني بصوته الجهوري ، محدثاً تلاطماً في شواطئ قهوتي . .

ـ ليس مسموماً . .

ـ عفواً ، ماذا . .؟

ـ ستبرد قهوتك وأنت تحدق فيها . .

على ما يبدو أن العيون الجاحظة تمتاز بقدرة فائقة على قراءة الأفكار . .!!

ـ أتخشى الموت . .؟

سؤاله هذا ، جاء بعد ما استقرت في بلعومي رشفتي الأولى . .

ـ ألا تملك جواباً . .؟

يوجه لي الأسئلة السريعة ، وهو منهمك بتفتيش جيوب سترته . .

ـ ظننت أني قد أضعتك

أخرج خاتماً فيروزي اللون ، ثم وضعه في ابهامه الأيسر ، وراح يدعك حجره بقوة ، وكأنه يحاول استدعاء العفريت . .

أيعقل بأنه يملك عفريتاً . .!!

تباً ، سيطلب حتماً ثلاث أمنيات . .

الاولى تعذيبي ، والثانية ستكون قتلي ، أما الاخيرة سيطلب فنجاناً آخر ليحتسيه أثناء مشاهدته الفيلم الدموي المفضل لديه . .

ـ يبدو أنك تخشى الموت ، فقررت التزام الصمت . .

ـ على العكس ، أنا لا أخشاه ، فالموت هو فراق أحبة سنشتاق لهم ، ولقاء أحبة قد اشتقنا لهم

ـ إذاً . .

لم ينهِ جملته إذ رن هاتفه ، معلناً عن وصول رسالة . .

رسالة زادت من حدة نظراته ومن بروز عينيه أكثر من ذي قبل ، حتى خلتهما ستسقطان في حجره . .

ملامح وجهه المخيفة أحالتني لطفل صغير أضاع أمه في زحمة الناس ، ثم التقطه تاجر أعضاء بشرية ، لا أعلم من أين سيبدأ مزاده . .؟

ـ إذاً فأنت لا تخشى الموت . .

أقر بأن لديه ذاكرة حديدية ، فرغم انزعاجه ، ورغم كثرة الفواصل الاعلانية المملة إلا أنه ما يزال يذكر حوارنا . .

ـ أجل ؛ لأن الموت . .

ـ حسناً ، مفهوم

لم يسمح لي بإظهار الفيلسوف المتربع داخلي ، والمنتظر لأي سؤالٍ حتى يصنع مؤلفات منه . .

وأشعل سيجارة ثانية ، ثم نهض من مكانه ليقف بجانب الكرسي الذي أجلس عليه ، واضعاً احدى يديه على كتفي ، وطالباً بالأخرى نهوضي . .

نسير كالأصحاب ، ويده لم تزل تعلو كتفي ، والأخرى قامت بتعريفي على الباب الرابع . .

والذي كان يطل على الحديقة ، حديقة منسقة ، رسمت فيها

الورود لوحات غاية في الابداع . .

ـ أمستعد للموت . .؟

رمى بسيجارته أرضاً لينتشل من أحضان سترته (مسدساً) أصابني بالعمى المؤقت لمعان معدنه تحت أشعة الشمس ، ثم غرسه بخاصرتي ، وهو ما زال يضمني كصديق حميم . .

ـ هل أنتَ مستعد . .؟

ـ أرجوك ، ما هذا . .؟

ـ أأنت خائف . .؟

ـ . . . . !!

ـ ها . . ها . . ها . . لمَ أنت خائف ، أنا فقط أجرب . .؟

ـ ت . . تجرب . . تجرب ماذا . .!؟

ـ أن كنت مستعداً للزواج

ـ الزواج . .!! ولكن ما علاقة الزواج بهذا . .؟

ـ الزواج . . ما هو إلا موت . . ولكن موت بطيء ، وأنا عرضت عليك موتاً سريعاً ، ولم تقوَ على مواجهته ، فما بالك بليالٍ طويلة من عذاب الموت البطئ . .

ـ الزواج موت . .!! رأيك هذا . . .

ـ هذا الذي تراه ليس مجرد منزل ، قلعة ، أو قصر ، إنما وطني ، مملكتي . .

وهذه هي قوانينها ودساتيرها ، التي فشلت بتطبيقها قبل أن أراك حتى ، والآن عليك أن تنسى صوفيا وترحل من حياتها و . .

لم أعد أسمع ما يتلو من أحكام ، لكنني كنت اقرأ ما تتبجح به شفتاه الغليظتان من قوانين ودساتير المجازر . .

حتى صار يختفي رويداً . . رويداً . . من أمامي وهو يدخل مملكته . .

وصرت أختفي أنا الآخر بخروجي منها ، كشبح ترك جسده في الداخل وراح يهرول بعد أن أصابه الجنون . .

خرجت من مملكته كشبح تائهاً بين الطرقات ، أتعثر بالغبار وبالحصى . .

أوراق الأشجار تساقطت وبدأت تلاحقني لأنضم إلى حلقات الرقص التي تقيمها ، وقطة نسيت جوعها وصارت تتوسد ظلي . .

عصفورٌ ترك فراش نومه الدافئ ، ليطربني بلحن حزين ناعس ، وهوت يرقة بنفسها من غصن شجرة لتداعبني . .

وهناك ساق أريكة تقاوم ألم الكسر ، كي لا يهوي بي . .

كل ما حولي يحاول مواساتي ، ومحو العذاب المرسوم على

وجهي . .

لكن الندم لم يفارقني . .

لم أندم على شيء ، قدر ندمي على عدم توجيهي له السؤال ذاته . .

(أتخشى الموت . .؟)

لكن المشهد سيكون مبتذلاً ، إذ ينقصه سيف محارب من العصور الوسطى . .

أحمله بكلتا يدي عالياً ، ثم أهوي به على رقبة يعقوب ، قبل أن أسمع جوابه الذي يظهر الأحمق الذي يتربع في داخله . .

والآن ، وبعد كل هذا يا عصام . .

هل ستتراجع . .؟ هل سيثنيك هذا عن الاستمرار في تحقيق أحلامك . .؟ أم ستهوي من ثقلها . .؟ أم ستعيش دور العاشق الذي لا يخشى الموت . .؟

(10)

ماذا تتمنى الآن...؟

نحـــن لا نرســـم الحياة ، إنمـــا هي من ترســـمنا بفرشـــاة القدر وتصـــوغ واقعنا لتنســـخ منـــه أحلامـــاً ، وبيـــن الواقـــع والأحلام تموت أماني وتحيا أقدار . . .

ـ حسناً ، ماذا تتمنى الآن . .؟

ـ أتمنى . . أتمنى . . أتمنى أن يموت والدك

ـ والدي . .!!

ـ أنا آسف لصراحتي ، لكنه يستحق ذلك

ـ . . . .!!

ـ تصوري ، قد حاول قتلي

ـ والدي . .!!

ـ يريد أن أبتعد عنك وأنساك

ـ . . . .

ـ أرجوك ؛ لا تبكي ، فلن أبتعد عنك ، سأقتله إن . .

ـ أرجوك عصام ، دعني أفهمك الأمر . .

ـ أنا أفهم كل شيء

ـ ولكن . .

ـ فلتطمئني ، لن نفترق ، سأقتل أي شخص يحاول أن يفرق بيننا ، سأقتل الناس جميعاً لأجلك . .

ـ أرجوك ؛ كف عن تعذيبي . .

ـ أنا أعذبك . .!؟ أم . . أم . .

ـ عصام . . عصام . .

ـ . . . .

ـ عصام . . عصام . . استيقظ بني

ـ صوفيا . . صوفيا . .

ـ ألن تكف عن الأحلام . .؟

ـ كم الساعة الآن . .؟

ـ إنها الثامنة والنصف

ـ تباً ؛ لقد تأخرت كثيراً . .

ـ كالمعتاد

* * * * * * *

ـ ضعوا تلك الورود هنا . . وهنا أيضاً

ـ حاضر سيدتي

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير حبيبي

ـ ما كل هذا ، يبدو أنك تبالغين . .؟

ـ مؤكد لا ، فأنا زوجة يعقوب ، المليونير يعقوب ، ويحق لي أن أقيم أجمل ، وأرقى ، وأفخم حفلة عيد ميلاد . . أم ترى أني . .

ـ أرى إني سأتأخر عن العمل

ـ فلتبق قليلاً بعد . .

ـ لا . . أفلتيني

ـ أبداً ، سأعانقك حتى آخر يوم في حياتك

ـ حياتي . .!!

ـ وحياتي أيضاً . .

* * * * * * *

ـ أراك قد عدت باكراً . .!!

ـ صلاح من طلب مني ذلك ، يريد أن أذهب للمستشفى عند المساء

ـ لماذا . .؟

ـ قال أن لدينا في المساء أعمالاً كثيرة لنقوم بها

ـ مسكين ، كم يتعب ذلك الفتى . .

ـ وأنا . .!!

ـ وأنت أيضاً يا بني ، مؤكد أنك تتعب كثيراً . .

سنعود من حيث بدأنا . .

صلاح كذا . . وصلاح كذا . . وصلاح . . وصلاح . .

أما عصام فسيقف دائماً آخر الطابور ، ليصل الى حنان والدته ، بعد أن ذابت قدماه من طول الانتظار . .

فتخبره بأن مشاعرها اليوم قد نفدت وليعد في الغد . .

سأنتظر الغد . .

ولكن هل الغد سينتظرني . .؟

* * * * * * *

ـ لِمَ كل هذه الدموع . .؟

ـ . . . .

ـ هل أذيت مشاعرك بشيء . .؟

ـ . . . .

ـ أرجوك ؛ أجيبيني . .

ـ أنا حزينة فقط . .

ـ لأجل والدك . .؟

ـ . . . .

ـ حسناً ، أن لم أقتله ، فهل تملكين حلاً آخر . .؟

ـ لا أملك حلولاً بعد اليوم

ـ . . . .

ـ عصام . .

ـ نعم ؛ يا حبيبتي . .

ـ سامحني ؛ أرجوك سامحني فأنا السبب في كل هذا . . أنا من . .

ـ أنتِ ماذا . .؟

ـ أنا . .

ـ أنتِ ماذا . .؟

ـ أنا أمك . .

ـ أمي . .!!

ـ استيقظ يا بني . . استيقظ . . صوفيا تتصل بك

ـ صوفيا . .!!

ـ أجل ؛ إنها صوفيا . .

ـ أهلاً صوفيا . .

ـ . . . .

ـ بخير ، وأنت . .؟

ـ . . . .

ـ بالطبع تفضلي

ـ . . . .

ـ ولكن ، والدك . .

ـ . . . .

ـ صوفيا . .

ـ . . . .

ـ آه . . تذكرت ، لدي عمل مهم في المساء ، أرجوك أن تعذريني . .

ـ . . . .

ـ صوفيا . .

ـ . . . .

ـ صوفيا . . صوفيا . .

ـ هل أقفلت الخط . .؟

ـ أجل . .

ـ ما الذي كانت تريده منك . .؟

ـ كانت تدعوني لحضور حفلة ميلاد زوجة أبيها

ـ وهل ستذهب . .؟

ـ مؤكد لا ، فلدي عمل في المساء ، ثم أني لا أطيق رؤية والدها . .

ـ والدها . .!! لماذا . .؟

ـ أمي أنا جائع ، يا ليتك تحضرين لي الطعام بينما أستحم . .

ـ حسناً ؛ يا بني . .

* * * * * * *

ـ لقد دعوته ، لكنه رفض

ـ أن ذلك الشاب قد فهمني . .

ـ فهمك ، أم فهم أساليبك الـ . .

ـ صوفيا ؛ أنا افكر في مستقبلك وسعادتك

ـ أنتَ لا تفكر سوى بأموالك ، وسعادتك

ـ أنتِ ناكرة للجميل كوالدتك

ـ وأنتَ خائن وشرير كذاتك ، فلا يوجد لك مثيل . .

ـ يبدو أني قد قصرت في تربيتك . .

ـ أنتَ مقصر في أشياء كثيرة ، وكثيرة . .

ـ من علمك أن تخاطبي والدك بهذا الأسلوب . .؟

ـ لم يعد لي والد ، والدي قد مات الليلة . .

* * * * * * *

ـ هل ستذهب للعمل . .؟

ـ بالطبع ، الى أين سأذهب إذاً . .؟

ـ ومتى ستعود . .؟

ـ عند الصباح . .

ـ عصام . .

ـ نعم يا أمي . .

ـ خذ هذا ، فلربما تشعر بالجوع . .

ـ حسناً ؛ الى اللقاء . .

ـ الى اللقاء بني ، رافقتك السلامة . .

* * * * * * *

(رسائل) . . .

ـ أرجوكِ ، فلتجيبي على اتصالي

ـ . . . .

ـ صوفيا ، لا تكوني عنيدة

ـ . . . .

ـ صوفيا ، ردي أرجوكِ

ـ . . . .

ـ أنا آسف أن أغضبتك ، سأترك كل شيء وآتي لأجلك

ـ حسناً . .

* * * * * * *

السواد سيد الحفل ، الكل يتشح به ، الكل يحمل الكؤوس ويدور ويتمايل بوجود أو عدم وجود موسيقى . .

الوجوه شاحبة ، هاربة من الموت ، كلما حلقت الألعاب النارية ، وكلما اختفت أضواؤها أحالتها رماداً . .

ـ عصام

ـ صوفيا ؛ أنا آسف أرجو . .

ـ المهم ، أنك هنا . .

ـ صوفيا ؛ أنا أحب . .

ـ انتظرني ، سأعود بعد قليل . .

ـ ولكن . .

في كل مرة أحاول أن أصارحها بحبي ، تتلاشى من أمامي . .

لماذا تهرب من سماع كلمة ، أحبكِ . .؟ هل تملك معنى قبيحاً في قاموس مشاعرها . .؟ أم بحبي سأسيء لها . .؟

أشعر أحياناً ، بأنها غريبة الأطوار ، وأن بقائي بقربها سيكون بلا جدوى . .

* * * * * * *

ـ أهلاً . . أهلاً . . بزوج ابنتي المستقبلي ، ظننتك لن تأتي

ـ لقد تركت كل شيء لألبي الدعوة

ـ هذا جيد

ـ . . . .

ـ تعال ، لنجلس سويةً

ـ عذراً ، سأجري اتصالاً سريعاً ، ثم أوافيك . .

كان الأجدر بي الذهاب الى المستشفى ، وجودي هنا صار غير مناسب . .

ـ ما الذي أتى بك . .؟

ـ أنا أحد المدعوين

ـ لم أضف أسمك لقوائم المدعوين

ـ أأغضبكِ وجودي . .؟

ـ لا ، ولكن . .

ـ ماذا . .؟

ـ يعقوب قادم ، الأفضل أن لا يراك هنا . .

ـ . . . .

ـ أين كنتِ . .؟

ـ كنت . . كنت أبحث عنكَ . .

ـ زوجتي العزيزة ، أنتِ أحن وأرق امرأة في الكون ، أنتِ جميلة حد الثمالة . . أنتِ . .

ـ يعقوب ، يبدو أنك قد أكثرت من الشرب باكراً . .

ـ أنا ابداً . . الشرب هو من أكثر مني ومنك ، قد أصبح لدي زوجات كثيرات . . ها . . ها . .

ـ لماذا تفسد حفلاتي دوماً . .؟

ـ دعكِ من هذا ، تعالي لأعرفك على . .

ـ تعال معي ، سأجعلهم يحضرون لك فنجاناً من القهوة . .

* * * * * * *

ـ هل تأخرت عليك . .؟

ـ كثيراً . .

ـ حقاً . .!!

ـ كل دقيقة تمر ولا أراكِ فيها ، تكون سنة ضوئية بالنسبة لي . .

ـ تعال معي . .

ـ الى أين . .؟

ـ لا تكثر من الاسئلة . .

تصافحني ، وهي تمر بخطوات سريعة بين حشود المدعوين . .

شعور جميل كنت أخاله ، لحظة تضم يدي وتقرر خطفي من بين آلاف الوجوه . .

لتتركني أتحسس نبضات قلبها ، ونيران عشقها ، التي تتسرب عبر لمساتها الدافئة . .

لكن حلم يقظتي لم يكتمل . .

يدها كجبال ثلج ، لا نبض ، لا نيران عشق مستعرة . .

لا شيء يخترق قلبي ، ليصب في بحور عشقه الثائرة . .

لم تكن سوى امرأة جميلة ، مخلوقة من ثلج وثلج . .

ـ انتظرني هنا . .

ـ ولكن . .

ـ سأعود بعد قليل ، لا تبرح مكانك مهما حصل . .

راحت تركض ، كغزالة صغيرة ، بريئة ، هاربة من فك جائع ومفترس . .

ثم غابت بين الحشود . .

لكن لماذا علي انتظارها بقرب هذه السيارة . .!؟

هل كنت مخطئاً في حكمي على مشاعرها . .؟

هل لهذه الرقيقة قدرة عجيبة في إخفاء أحاسيسها أو كبتها . .؟

هل ستعود بعد قليل ، مفعمة ، متفجرة بمشاعر حبٍ نارية . .؟

وهل سنمتطي هذه الماكينة ، لتحلق بنا فوق سحابة الحب الابدي . .

ـ نعم يا أمي . .

ـ . . . .

ـ من معي . .؟

ـ . . . .

ـ اه . . أهلاً صلاح ، أعذرني لم أستطع الذهاب الى . .

ـ . . . .

ـ ماذا . .!؟

ـ . . . .

ـ حسناً ، أنا قادم . .

* * * * * * *

ـ آه . . آه . . آه . . اااأبي . .

ـ . . . .

ـ يعقوب . .!! ما الذي فعلته يا صوفيا . .؟

ـ أنا . .!! أنا لم أفعل شيئاً . .

ـ آه . . يا إلهي . . يعقوب حبيبي ، كيف طاوعتك نفسك على قتله . .!؟

ـ . . . .

ـ صوفيا . .!!

ـ عصام . . أنا لم أقتل أبي ، لم أقتل أبي يا عصام ، لم أقتله . .

ـ . . . .!!

(11)

من أنت...؟

من اســتدعى ذلك العجوز الهرم ، من
أجبره على حضور حفلة صاخبة ليحوم
فيها مسدلاً عباءته السوداء فوق وجوه
الموتى ، ويقدم مشهده الحزين والمؤثر
بــكل جدارة ، ثم يجمــع قبل رحيله ما
جنى من دمــوع الحاضرين ، ويمزجها
في كأس حياته الأبدية . . .

الموت . . ضيفنا الثقيل والحاضر بلا موعد ، بلا قرع باب . .

والمسلّمون دوماً بفكرة جلوسه بيننا ، ليختار قرابينه دون أن نتكلم ، دون أن تحكي منا الشفاه . .

مرة أخرى السواد سيد المكان ، فالكل ما يزال يتشح به . .

ذات السواد ، ذات الأجساد المتمايلة ، لكن ثمة شيء فيها قد اختلف . .

الأرواح . .

الأرواح قد اختلفت ، خشعت ولانت ، بعد أن دبّ الخوف في أصغر تفاصيلها . .

فالأرواح هي وجهة الأحزان وموطنها الأصلي . .

لا حزن بارتداء آلاف الأقنعة الباكية ، لا حزن بارتداء آلاف الخيوط السوداء الحالكة . .

الحزن في الأرواح . .

خلف أقنعة الضحكات العالية والمجنونة . .

خلف خيوط خضراء كخضرة الحشائش النامية حول شواهد القبور . .

خلف خيوط زرقاء ، وأخرى صفراء كوجوه الموتى الشاحبة . .

وخلف خيوط بيضاء كالتي وارتها . .

أو خيوط حمراء كدمائهم التي سالت أو تجمدت في العروق . .

ولكن بالرغم من ذلك تختار الألوان وترتدي المفضل لديها ، وهذه الليلة اختار السواد أن يرتدي الأحزان . .

يعقوب يتوسط دماءه ، كربوة تشققت تربتها ، لتعلن عن ظهور غرس شيطاني يقتات على الدماء الطازجة . .

وأرملته تفترش أريكة واسعة ، تفقد عليها الوعي بين كل صرختين ، حتى لا تسقط ارضاً . .

تفقد وعيها بصورة ماهرة ومتقنة . .

وكأنها تمتلك قدرة في الاطفاء والتشغيل الذاتي . .

أما صوفيا ، فتحاول الانغماس في إحدى زوايا الجدران ، وهي تردد العبارة ذاتها . .

(لم أقتله . . لم أقتله . .) . .

دقات قلبها الجنونية تكاد تمزق أحشائي ، وهي تدق بين أضلعي بعد أن ضممتها الى صدري . .

ورغم أن وجهها الجميل قد أصابه الشحوب ، لكن الدموع زادته جمالاً . .

جميلة هي في كل الأوقات . .

صرخة . .

صرخة مدوية تغزو المكان . .

تعيد لآسيا وعيها ، وتزيد من تكور صوفيا في أحضاني ، وتخرس ألسن الحاضرين . .

ليعم السكون . .

قتيل ثانٍ . .!!

ولكن من أين أتى . .؟

كيف وصل الى هنا . .؟

اظنني لمحته يحلق رغم بدانته ، ثم سقط راطماً رأس يعقوب بساقه ، ليتحولا لجثتين هامدتين . .

هل سيستيقظ يعقوب ، بعد أن لطمته ساق هذا الثور . .؟

أم يحتاج بقرة . .؟

ولكن من قتل هذه البقرة ، أعني . . من قتل هذا الثور . .؟

بدأ يحرك ساقيه ، ما زال حياً . .

لكنه يحاول السباحة فوق أرضية المكتب . .

بدأت أقترب نحوه لأساعده على النهوض ، بعد أن فقدت الأمل بجميع الحاضرين . .

لا أحد يحاول مساعدة ثورنا العزيز . .

ولا هو بحاجة إلى ذلك ، إذ بلمح البصر وبرشاقة مدهشة ، لا تتناسب مع تلك البطن الكبيرة ، نهض وبدأ بترتيب هندامه . .

تباً ما هذا . .؟

من أي حقبة زمنية هرب . .؟

قباب في كل مكان . .

في الوجه ، في الصدر ، أما البطن فعبارة عن قبة كبيرة ، كما أن هناك قبتان في الخلف لا تحتاجان لتسمية أو تعيين . .

المدهش في الأمر أن كل هذه القباب ، قد تجمعت في مخلوق لا يتجاوز المئة والخمسين أو المئة والخمسة والخمسين سنتميتراً . .!!

وصارت تجاهد في ستر نفسها ، خلف ثياب مثيرة للضحك رغم الموقف المأساوي الذي يحيطها . .

بنطال لم يستطع أن يزداد طولاً . .

فيستر الجورب الأخضر عن يمينه والبني عن شماله ، لانشغاله مع ذلك الحزام اللعين الذي يحاول إبقاء البطن الكبير محشوراً في داخله . .

وبين أزرار القميص تروى حكاية (البقاء للأقوياء) . .

فرغم كل الضغوط التي تحيط بالقبة الكبيرة ، إلا أنها استطاعت أن تصنع ثغوراً تنفسية تبرهن فيها استمرارية الحياة . .

ولكن ما ذلك الزر . .؟

يا له من زر غريب . .!!

ينظر إلي ، وكأن فيه عيناً سحرية . .

تباً ؛ إنها السرة . .

هي الأخرى تحاول بين شهيق وآخر ، أخذ جرعة من أكسير الحياة . .

في أعلى القميص ، في آخر زر بالتحديد . .

لا أعلم كيف أصفه ، لكن ذلك الثور قد شنق نفسه برباط قصير لا معنى لوجوده ، إلا أذا طرز عليه أسمه أو عنوانه أو شيئاً يستدل به عن هويته أن فقد . .

كلما ارتقيت هذا الشيء ، تتيه مني الأفكار وأعجز عن الوصف . .

لوجهه ملامح طفولية ، لكنها لطفل بليد ، بحاجبين صغيرين ، وعينين صغيرتين ، ولديه أنف صغير كذلك ، كل شيء فيه صار صغيراً نتيجة الضغط الموجه من قبل عنوان الصحة ، خدوده الوردية . .

وقبل أن يعتمر قبعة أبنه الصغير على ما أظن ، ويحاول حشر رأسه المفلطح في داخلها ، لاحظت أن الصلع أخذ على عاتقه مد طريق صحراوي في متوسط رأسه . .

أخيراً لملم نفسه وحمل سترة أيام دراسته الثانوية بين ذراعيه ،

ثم نظر في ساعته الأنيقة . .

أجل الأنيقة . .

فرغم كل المخالفات الموجودة في هذا الكائن المهدد بالانقراض ، إلا أنه يمتلك ساعة وزوجاً من الأحذية الأنيقة . .

التي لم أجد في وصولها إليه تفسيرا . .!!

ـ هل هذا هو القتيل . .؟

مشيراً الى يعقوب ، المطعون بسكين ، والعائم في بركة من الدماء ، وكذلك الحاصل على ضربة من ساق ثور ، لم ولن تحييه أبداً . .

أي جواب ينتظره منا . .؟

فمؤكد هو القتيل ، أم إنه معبر حدودي بين المطبخ وغرفة استقبال الضيوف . .

من بين كل الحاضرين صار يتوجه نحوي ، ثم قال . .

ـ هل أنتَ ابن القتيل . .؟

ـ لا . .

ـ هل للقتيل أبناء . .؟

ـ ابنة واحدة

ـ وأين هي . .؟

أين هي . .؟

هي بين أحضاني ترتجف كفراشة ناعمة ورقيقة ، بعد أن سقطت في قبضة مجنون استيقظ في أحد الصباحات ليقرر فجأة أن يكون هاوي جمع الفراشات . .

ليكتم أنفاسها بين صفحات الكتب ، رافضاً فكرة تركها تكمل يومها الأخير والأوحد ، محلقة بين الورود . .

ـ ومن أنتَ ، لتسأل عنها . .؟

ـ إنه المحقق . .

قالها عملاق ، ذو صوت جهوري مزعج وهو يتوسطنا . .

ولكن أنه هو . .!!

شبيه ذلك الثور ، غير أنه أزداد عنه طولاً وبلادة . .

ـ عفواً ؛ هل أنتَ الضابط المحقق . .؟

ـ رائد . . (ومد يده ليصافحني)

ـ أنا آسف ؛ حضرتك الرائد المحقق . .؟

ـ اسمي رائد ، ولا أحب الغباء . .

ـ . . . . !!

ـ إذاً أين هي ابنة القتيل . .؟

أين . .؟ أين . .؟ كالنسمات الدافئة تبخرت من بين ذراعي ، بعد أن أخافتها هذه الكائنات مؤكداً ، وقررت الاختفاء من رعبهم . .

ـ لا أعلم ، لكن من المؤكد أنها موجودة في مكان ما هنا . .

ـ حسناً ، ومن أنتَ . .؟

ـ أنا . .

ـ هذا جيد ، أحسنت صنعاً . .

قال عبارته الأخيرة ، بعد أن وشوشه ذلك الهرقل ، فتركاني وراحا يسيران باتجاه آسيا . .

رجال من الشرطة وآخرون من المباحث الجنائية ومجموعة من الخبراء والمختصين ، قد انتشروا في جميع أرجاء المنزل . .

منهم من يقوم بالكشف والمعاينة لمكان الحادث . .

و منهم من يعبث ويفتش في حاجيات يعقوب ، منتهكاً أبسط خصوصياته ، زاعماً السعي وراء الأدلة أو المذكرات أو أي ملاحظات ، تساعد في الوصول الى الجاني . .

وهنالك من يتفحص الوجوه بصورة مريبة ، وهو يدون ما يدلي به جميع من وجد ساعة وقوع الجريمة ، سواء من أسرة المجني عليه أم المدعوين وحتى الخدم . .

وهنالك مصور قد صنع من يعقوب نجماً سينمائياً من العيار الثقيل ، وراح يلتقط له صوراً من كل الزوايا والجوانب . .

أما رائد وعملاقه ، فقد أطالا الحديث مع آسيا ، كما أطالت صوفيا في غيابها عن ناظري . .

تباً ؛ كدت أنسى أمي . .

ـ صلاح . .

ـ . . . .

ـ كيف حال أمي الآن . .؟

ـ . . . .

ـ في المستشفى . .!!

ـ . . . .

ـ أرجوك أصدقني القول ، أهي بخير . .؟

ـ . . . .

ـ حصلت معي بعض الأمور ، لن أتمكن من المجئ الآن . .

ـ . . . .

ـ سأخبرك لاحقاً . .

ـ مع من تتكلم . .؟

ـ عفواً . .

ارتبكت قليلاً ، بعد أن تفاجأت بوقوف العملاق خلفي ، وهو يسألني عن المكالمة التي كنت أجريها . .

ـ ضابط رائد ، يود التحدث معك . .

ـ ضابط رائد ، ها . . ها . .

ـ ما الذي يضحكك . .؟

ـ لا شيء ، فقط تذكرت قصة جميلة ومضحكة

ـ حقاً ، وما هي . .؟

وهو يرسم على وجهه ابتسامة بلهاء ، تكشف عن سني عملاقين يتدليان من مقدمة فمه ، جعلا منه أكبر أرنب أراه في حياتي . .

* * * * * * *

ـ في الحقيقة ، بذكائي وفطنتي وخبرتي الطويلة في حل ألغاز جرائم القتل ، أستطيع القول أن أرملته مستحيل ، وأصر على كلمة مستحيل أن تكون هي القاتلة . .

ـ حقاً ، وكيف ذلك . .؟

ـ كيف . .؟ سألتني كيف ، وأنا علي الاجابة . .

وهي أن المرأة الجميلة يستحيل أن تقتل ، ما هو دافعها يا ترى . .؟ ثم أن المرأة الجميلة لو تقتل ، هذا يعني أن الفواكه تسبب التسمم ، ولا يعود أحد قادراً على تناول الأرز . .

أفهمت ما أعنيه . .؟ التعمق . .

علينا التعمق في حقيقة كل ما هو حولنا ، ولا نفسر الأشياء بسطحية . .

ـ فلسفة رائعة . .!!

ـ آه . . آه . . الفلسفة . .

أتعلم شيئاً ، قد أحببت الفلسفة منذ الصغر ، وكنت أتمنى دوماً

دراستها والتعمق فيها أكثر ، لكن مع الأسف أتابع مسلسلاً في الثامنة مساءٍ ، يبقيني مشغولاً عنها . .

ـ أتظن أنك قادر على حل اللغز . .؟

ـ أي لغز . .؟

ـ لغز الجريمة ، وأرجوك لا تقل ، أي جريمة . .؟

ـ ماذا تعني بقولك هذا . .؟ أنا أفهم هذه النظرات جيداً ، أنتَ تحاول التقليل من شأن من يعمل معي . .

لكن أطمئن ما دمت معهم ، وقد أخذت على عاتقي العمل والتحقيق بهذه الجريمة فسنصل للجاني وبسرعة . .

أنهى جملته وهو يقف رافعاً بطنه الى الأعلى قليلاً ، ويخفي عينيه تحت قبعته ، ماسكاً بقبضته الهواء وكأنه يمثل اللقطة الأخيرة من فيلم رعاة البقر . .

ثم حبس أنفاسه منتظراً المخرج أن ينهي تصويره ، لينهال عليه المعجبون بسيل من التصفيق والصفير المزعج . .

طال انتظاره ، وما عاد قادراً على حبس أنفاسه أكثر ، فقرر الجلوس ثانية ، بعد أن يئس من ذلك المخرج اللئيم ، الذي كان يتمنى انفجار البطن الكبيرة الى أشلاء . .

ثم راح يكمل حديثه ، أن اعتبرت ذلك حديثاً . .

ـ أتعلم ، ما هو السبب الجوهري الذي سيوصلنا الى الجاني بسرعة . .؟

ـ مؤكد الدقة في الاجراءات . .

ـ لا ؛ هناك ما هو أرقى وأسمى . .

ـ وهو . .؟

ـ الجوع . .

ـ الجوع . .!!

ـ أنا أجوع كثيراً أثناء العمل . .

أتعتقد بسبب الامساك . .؟ إذ أعاني الامساك المزمن ، رغم أني متأكد أن لا علاقة له بالتقيؤ . .

ـ هل أنتَ . .

ـ مدمن ، أنا مدمن للتدخين . .

فأحياناً أتناول في الفطور الجبن وأحياناً لا أتناول البيض ، لكنني أفضل اللحم في العشاء ، كي أستطيع الالتزام بالحمية القاسية التي أقوم بها ، فالشراهة تلازمني منذ الولادة . .

تصور أحب الطعام كحب الأطفال للمثلجات صيفاً وهي تذوب بين أصابعهم من الحر ، رغم أن درجة الحرارة تكون منخفضة أثناء

الشتاء . .

ورغم أن اسمك غير موجود في قوائم المدعوين . .

ـ ماذا . .!!

ـ المهم ، قد تحدثت مع أرملته صوفيا أو آسيا ، لا أذكر أياً منهما أرملته ، كل ما أذكره أنهما امرأتان وهو رجل واحد . .

لَمَ لم يكن لديه ابن . .؟ لو كان له ابن مؤكد سيكون هناك امرأتان ورجل ورجل آخر . .

الرياضيات . . الرياضيات عشقي الأزلي ، لكن مع الأسف لم أستطع التعمق بدراسته بسبب . .

ـ مسلسل الثامنة مساءً

ـ لا إنما . .

ـ الجوع . .؟

ـ طبعاً لا . .

ـ لم يتبقَ لدينا سوى الامساك ، وهذا لا علاقة له بالتقيؤ . .

ـ ما الذي تقوله ، مؤكد لا . . لا . . إنما هو العمل ، فأنا محقق لدي واجبات ومهام أقوم بها ، ولا أنشغل عنها بأمور ثانوية قد تشتت أفكاري . .

تباً ؛ ما الذي يحدث . .؟

هل شفي بعد أن نقل إلي العدوى . .؟

الـ . . الـ . . لا أعلم ما أسميها ، عليك أن تصحو يا عصام ، لتستوعب ما يدور من حولك . .

ـ أنا أعتذر . .

ـ لا حاجة للاعتذار ، فهو ليس ذنبك إنما ذنب زميلي الذي فضل البارحة تناول البيتزا بدل اللحم ، ثم أصر بعد ذلك على أن نشتري فطائر التفاح من أحد الباعة المتجولين . .

لم أحب تلك الفطائر ، لم تكن لذيذة ، رغم إنها قبل يومين كانت لذيذة عند بائع آخر . .

هل تظن أن ذلك البائع كان فاشلاً وأحمقاً . .؟

ـ مؤكد فاشل وأحمق و . . .

ـ ما كل هذا التذمر . .؟ كيف تحكم على الأشخاص قبل أن تتعرف عليهم . .؟

تبدو حقوداً ، رغم أن عمرك لم يصل الأربعين ، ففي ذلك العمر يضعف بصر أغلبية البشر ، مع إنهم يذهبون في عطل صيفية أثناء الخريف . .

ـ ولكن . .!!

ـ ولكن . . ولكن هل تتصور أن صوفيا قاتلة . .؟ أم إنها شريرة فقط . .؟ ويعقوب هل كان شريراً أم غبياً . .؟

ـ غبي كبير . .

ـ حقاً ، لم ألحظ مقاس جزمته ، سنرى ذلك لاحقاً . .

ـ . . . .!!

هل يعقل إنه يتكلم بهذه الطريقة طوال الوقت . .!؟

هل حقق مع الجميع ، بهذا الأسلوب العشوائي والمبعثر . .؟

هل هو حظ يعقوب العاثر الذي أتى به ، ليخفي آثار الجاني . .؟

أم هو حظنا التعيس الذي سيجعله يختار مداناً من بيننا لا على التعيين . .؟

جاء مرة أخرى العملاق ، ليوشوش شبيهه المصغر ، الذي تغيرت ملامح وجهه ، وصار يجاهد في توسيع عينيه الصغيرتين وهو يتقدم نحوي باحثاً في نظراتي عن شيء ما ، ثم قال . .

ـ صوفيا ، قد هربت . .

ـ ماذا . .!!

هربت . .

لـمَ تهرب . .؟

وأين هي الآن . .؟

أين ذلك الركن الذي ترتجف بين أحضانه . .؟

أين ذلك الركن الذي قررت أن تخفي دموعها فيه . .؟

أين . . وأين . . وأين . .؟

(12)

أي هروب ستختار...؟

ليس هنالك أشـــد قسوة من لحظة أقرر فيها الهروب من نفسي ، تحاول روحي الانســلاخ عن جســدي ، لكــن دون جدوى ، شيء يشدها ويصر على إبقاء الكيان الواحد . . .

أكرههم . . أكرههم جميعاً . .

كلمات سحرية تحاور أفكاري ، حين أنوي امتطاء بساط الهروب ممن حولي ، فيسهل علي الأمر رغم قسوته هو الآخر . .

الهروب هو . .

الداء والدواء . .

الدمعة والبسمة . .

أول أماني الضعفاء وآخرها للأقوياء . .

أما عن عشق الهروب . .

فهنالك قلوب تعشق الهروب ، ولا تجيد غير عشقه . .

قلوب لا تسمع أناتها أو تكشف خوالجها ولا ينصاع لأوامرها ، إلا أطياف متمردة تدعى الأحلام . .

أطياف لا تنحني لقانون زمان أو مكان ، وبلمسة سحرية منها يذوب ويمتزج كل شيء راسماً حياة ثانية . .

أطياف تشرع بوابة الهروب عبر النوم ، معلنة عن انصياعها . .

سامحة بخلق حياة غير الحياة وأناس غير الناس . .

يكون الهاربون بينهم النجوم والأبطال ، ومحط أنظار الجميع . .

السعادة . .

هروب الى السعادة . .

قد يظن البعض بأنه الطريق السهل والآمن . .

الطريق الذي لا يسلكه إلا المحظوظون والمرفهون . .

أما الحقيقة فهو الطريق الأصعب ، الذي لا يخلو من العثرات تلو

العثرات ، كل عثرة فيه تتمنى انكسار ساق أو انعطافاً عن الطريق . .

قلة هم من يكبتون الدموع . .

يكبتون الشكوى . . يكبتون الوجع والألم ، قلة اولئك الذين يهربون الى السعادة . .

لا أعلم ، لست متأكداً . .

لا أظن إني سلكت ذاك الطريق يوماً . .؟

أو ربما ، من يدري ، قد أكون هربت الى السعادة من قبل ، دون إدراك مني . .؟

لكن هنالك هروب يخفي في داخله شيئاً من السعادة ، أفضل تجربته غالباً ، شرط أن لا يصل حد الإدمان فيستحيل لهروبٍ أزلي . .

هروب بالصمت الأزلي . .

صمت . . يتلوه صمت . . من بعده صمت . . ومن بعده صمت رهيب . .

كم أخشى أولئك الهاربين بالصمت الأزلي . .

اولئك الذين يحملون في داخل كل واحد منهم ، ضجة من

الافكار والاحاسيس والاوجاع . .

التي لو قدر لها الحرية ، لأصبحت سرباً من الأعاصير المدمرة ، وستقتلع كل ما مرت عليه . .

الحب . .

الهروب الى الحب مجهول دائماً . .

فالحب شعور متقلب ومزاجي ، ومن يمتطي بساط هروبه لا يأمن من غدره ، لا يأمن السقوط . .

كل أنواع الهروب لا يإمن غدرها ، إلا الهروب الروحاني . .

فهو أسمى هروب . .

لا غدر ، لا ندم ، لا خوف ، ولا مجهول . .

الهروب واقع حال ، واحياناً يكون قراراً . .

نكون احياناً الضحية المخدوعة والهاربة من مواجهة الحقيقة ، لا لسذاجتها إنما لخوفها على صندوق ذكرياتها الجميلة من العبث والضياع . .

أو نكون الجاني الذي صار ضحية نفسه فقرر الهرب قبل أن

تنقضي الدقائق الأخيرة معلنة عن الثانية عشرة لكشف المستور ، لا لحنكته إنما لخوفه على حبه وصوره داخل قلوب لا يشوبها الغبار . .

واحياناً لا نعلم ما نكون حين يصحو أحدنا ليجد نفسه محشوراً داخل ثياب جار أو صديق أو قريب محشوراً بين انفاسهم ، في جيوبهم ، زارعاً آلف عين وعين داخل بيوتهم ، لا لجبروته إنما لخوفه من العيش وحيداً والموت وحيداً . .

الخوف . .

الأيادي الخفية ، التي تدفع بنا نحو الهروب ، واحياناً نحو الضياع . .

وإن ضعنا فلن نعود ، وإن هربنا فالشوق كفيل بإعادتنا . .

فالشوق أقوى من الهروب . .

متى سيناديها شوقها . .؟

والى حضن من سيعيدها . .؟

لأجلها قد اخترت الهروب الى المجهول الى الحب ، فأي هروب ستختار . .؟

ـ صلاح . . صلاح . .

ـ أنا مستيقظ ، منذ كنت منهمكاً بكتاباتك . .

ـ إذاً فلتذهب لبيتك لترتاح ، وأنا سأبقى بقربها

ـ حسناً ، سأعود عند العاشرة . .

مر أسبوع على هروبها . .

ولم أجد سبيلاً إليها بعد أن اختفت . .

عجزت عن البحث والسؤال والانتظار ، انتظر كل يوم أن تتصل بي أو تطرق ذات ليلة الباب . . لتخبرني إنها لم تجد غيري ملجأ ، وأني أول من فكرت به . .

أو تخبرني بأني كل ما تبقى لها في هذه الدنيا ، وأني أول من فكرت به . .

حتى لو فكرت بقتلي . .

فالمهم أن خيالي ، طيفي ، قد لامس احساسها ، قلبها وفكرها ، ولاحت صور له في عينيها الجميلتين . .

ـ عصام . .

ـ نعم يا أمي . .؟

ـ متى سأعود للمنزل ، قد مللت الرقود في المستشفى . .؟

ـ لا أعلم بعد ، لم يخبرني صلاح . .

ـ عصام ، ما بك يا بني ، لمَ تبدُ شاحباً . .؟

ـ متعب قليلاً

ـ قد اتعبتك بالسهر بجانبي ، سامحني يا . .

ـ لا . . لا تقولي ذلك ، أنا متعب من كثرة التفكير بأمر ما . .

ـ أمر ، أي أمر . .؟

* * * * * * *

ـ لماذا طلبتِ أن نلتقي ، في هذا المكان البعيد . .؟

ـ يا له من سؤال غريب . .!!

ـ ما الغرابة في سؤالي . .؟

ـ من البديهي بعد الذي حصل ، قد أكون مراقبة من قبل الشرطة . .

ـ آسيا ؛ علي أخبارك بشيء . .

ـ فيما بعد ، علي المغادرة الآن . .

ـ لكن . .

ـ هذا نصف المبلغ . .

ـ النصف . .!!

ـ أجل النصف ، ألم يكفك ما سرقته . .؟

ـ . . . .

ـ اه . . تذكرت ، ولتسافر الى مكان آخر

ـ أسافر . .!! الى أين ، وكيف . .؟

ـ تدبر أمرك . .

ـ وعملي . .؟

ـ جمال ؛ تدبر أمرك ، فأنتَ السبب في كل ما نحن فيه . .

ـ أنا . .!!

ـ مؤكد أنتَ ومن غيرك ،لو أنك التزمت وفهمت ما علمتك اياه ، لما وصلنا لهذه النقطة . .

ـ ولكن أي نقطة . .؟ عن ماذا . . توقفي . . توقفي لا تذهبي . .

* * * * * * *

ـ الجثة جاهزة . .

ـ رجل أم . .؟

ـ رجل . .

ـ ممتاز ، ومتى التسليم . .؟

ـ بعد ثلاثة أيام

ـ حسناً ، موعدنا بعد ثلاثة أيام تسلم الجثة وتستلم النقود . .

ـ كاملة . .؟

ـ بالتأكيد . .

* * * * * * *

ـ أين كنت تلك الليلة . .؟

ـ أتحاسبني . .؟

ـ أجل ، أنا أحاسبك . .

ـ من أنتَ لتحاسبني . .؟ من أعطاك الحق لتكلمني بهذه الطريقة . .؟

ـ . . . .!!

ـ سئمت منك ، وسئمت حياتي ، ما هذه الحياة التي لا يوجد فيها سوى صلاح . . صلاح . . صلاح . .

ذلك المتطفل الذي يشاركني في كل شيء ، ويحاول سلبي حضن أمي . .

يحاول . . ويحاول . . دون كلل ، رغم إنه لا يعلم ما يريد ، والى أين سيصل . .

ـ أتخبئ كل هذا في قلبك . .!؟

ـ وأكثر بكثير مما تتصور . .

ـ . . . .!!

ـ أتعلم شيئاً ، أحياناً أشفق عليك من نفسك . .

ـ حقاً ، حمداً لله ، لكن لا حاجة لي بشفقة فاشل مثلك ينوح طوال الوقت ، مدعياً الوحدة وفي الحقيقة ما هو إلا شخص ضعيف وانهزامي ، يقبع داخل قوقعة صدئة ليستحضر فيها الأحزان . .

ـ . . . .!!

ـ أما الوحدة ، ذلك الشعار اليتيم الذي تردده دائماً ، فقد صار مملاً مثلك ، ما دمت غير قادر على معرفة معناه ، ولم تجرب طعم الوحدة يوماً . .

ـ . . . .

ـ اعلم ما يجول بخاطرك من أفكار مغلوطة ، فبعدك عن الناس وقضاء ساعات طويلة في غرفتك قد يشعرك بشيءٍ من الوحدة . .

لكن الوحدة لا تكمن في غرفة ، لا تقبع بين الجدران . .

الوحدة شعور يستحوذ على القلب ويحكم العقل جاعلاً منك عبداً له ، وكلما تمكن سلطانه منكَ تفرعن وطغى ليصير غربة ، غربة تحجبك عن رؤية كل من حولك . .

ـ . . . .!!

ـ تشغل نفسك دوماً بالأوهام وبظواهر الأمور ناكراً للحقائق ومتعامياً عن ما تخبئ القلوب من أسى ، تشغل نفسك بغيرتك الرعناء . .

غيرتك من شفقة أمك علي ، من كومة مشاعر تنثرها فوقي كفتات خبز تبقى لديها من ليلة أمس ،

فأنتَ أول من يتربع ويأكل من وليمة حنانها ، وأنا الذي يجلس من بعدك باحثاً بين الصحون عن بقايا حب وحنان . .

ـ وماذا كنت تنتظر غير الشفقة ، وهي ليست أمكَ . .؟

عبارتي الأخيرة والجارحة . .

قد صعقته ، فرماني بنظرات حادة ومخيفة ، منعتني من أن أستمر في تجريحه . .

تنهد عدة مرات وهو يغطي وجهه بكلتا يديه ، وبعد لحظات من الصمت أزيلت الستارة عن . .!!

عن وجه آخر لم أره قبل هذا اليوم . .

ـ أجل ؛ هي ليست أمي ، كان لدي أم وكانت تقبل جبيني كل ليلة قبل أن أغفو . .

وهي تقول أحبك يا بني . .

تقبل جبيني كل صباح بعد أن أصحو ، وهي تقول أحبك يا بني . .

لكن رحلت ، رحلت وتركتني أغفو طفلاً يفتقد قبلة أمه ، طفلاً ترتوي الوسادة من دمعه ، طفلاً شاخت روحه في ليلة واحدة ، ليصحو دون قبلتها كهلاً . .

منذ رحلت والأحزان لا تكف عن تذكيري برحيلها ، طارقة باب مشاعري ، واحاسيسي ، وقلبي . . لا تكف عن تذكيري ذلك التذكير المؤلم الذي لم أجد سبيلاً في الهروب منه إلا إليه . .

أدور . . وأدور في حلقة الذكريات المغلقة ، وكلما هربت منها أجد نفسي ما زلت أدور فيها . .

فالهروب من الذكريات كالهروب من الهروب بحد ذاته . .

أنا لم أنسها لتذكرني أنتَ برحيلها . .

كما إني أدرك أن تلك الإنسان هي ليست أمي . .

إنما هي أمُ ذلك المعتوه الذي يخال أن الدنيا يجب أن تدور من حوله ، أمُ ذلك المعتوه الذي قضى عمره يفكر ويسأل ، متى سيفكرون به . .؟ ومتى سيشعرون بوجوده . .؟

وهو طوال الوقت يتعامى عن ما يفكرون أو يشعرون . .

ذلك المعتوه الذي لا يمهل نفسه أن تدرك حقيقة من أكون . .

أنا الذي كان يبحث عن عطر أمه ، عن حضنها ، نبرة صوتها ، عن ومضة كانت تلوح في عينيها ، وعن وجه كاد أن يكون وجه أمي . .

أنا الذي ببساطة ، مجرد إنسان . . إنسان يدعى . .

صلاح . . صلاح . . صلاح . . صلاح . .

راح يكرر اسمه ، وهو يرسم فوق ورقة بيضاء تستلقي أمامه ، دوائر تتداخل فيما بينها تكبر حيناً وحيناً تصغر . .

خيّل لي للحظة إنه يحاول رسم دوامة لتبتلعه ، والأبشع لو أنه يتراجع بقراره جاعلاً مني كبش فداء . .

ـ أتعلم يا عصام ، أنا إنسان قد فقد الثقة بكل من حوله ، وبالأحلام وبالواقع وبالذكريات . .

اعتدت الوحدة ، لم أعد أخشاها ، آكل وأعمل وأنام وأستيقظ . . وكل ذلك وحيداً . .

أشعر أحياناً بأني أكثر وحدة من الوحدة ذاتها ، وأن الوحدة قد صارت تتخذ مني مأوى ، لا أنا آوي إليها . .

نهض ليقف بالقرب من نافذة غرفته المطلة على حديقة المستشفى ، وهو يحاول اشعال سيجارة بأصابع مرتجفة وراح يسترسل بحديثه . .

حديثه الذي لا أعلم لمَ ما أزال استمع إليه . .؟

ألأني أعشق سماع الروايات والقصص الخيالية المعبأة بالأكاذيب ، أم إنه يقول الحقيقة . .؟

ـ في باحة المنزل كان يقف أبي لاصقاً كتفه بكتفي ، وهو يقول . .

(قد أصبحت بطولي تقريباً) . .

متظاهراً بأنه لا يلاحظ وقوفي على أطراف أصابع قدميّ ، ليشعرني بمدى فرحته حين يرى ولده الصغير قد صار رجلاً . .

بعد ذلك جاءت أمي تسير نحونا ، وهي تنظر الى أصابع قدميّ وتقول . .

(يبدو إنه قد كبر ولم يعد بحاجة الى حفل وهدايا الأطفال) . .

احترت حينها ، ولم أستطع معرفة ماذا أقرر ، هل أزداد طولاً لأجل فرحة أبي ، أم ألامس الارض لأجل فرحتي . .؟

واحترت أكثر حين قالت لي بعد أن قبلتني . .

(لا تنسني) . .

ثم ذهبا الى السوق . . ذهبا ولم يعودا . . لم يعودا . .

عاد ليسترسل بحديثه بعد لحظة صمت حزينة . .

ـ لا تنساني . . لا تنساني . .

لِمَ كانت هذه آخر كلماتها . .؟ هل أخبرتها الأقدار بشيء . .؟ هل كانت على موعد مع الموت . .؟ ولِمَ تواعدا مع الموت في ذلك اليوم بالتحديد . .؟

هل ليكون يوم مولدي هو يوم موتهما ، يوم وداعهما . .؟ ليكون يوم مولدي هو اليوم الذي أموت فيه كل سنة ، وأنا ما أزال أتنفس . .

في هذه اللحظة ، كانت بحار الدموع تغرق عينيه ، وهو يقف عاجزاً عن انتشالها . .

ـ لا تنساني . . لا تنساني . .

كلماتها تلك ، جعلت مني خيالاً يتتبع خطوات أمكَ ولا يقوى على فراقها ، متناسياً ، متجاهلاً لنظراتك الحقودة ووجهك العبوس . .

وهو يشتت في الهواء آخر أنفاس سيجارته ، شرد قليلاً ، وكأنه يرى أطيافاً . .

ـ ذات يوم ، قررت أن أجد لنفسي حلاً ، أجد بديلاً ، إذ لم أعد أطيق عبوسٍ وجهك ، كلما لاح طيفي من أمامك . .

لابد أنكَ تقول الآن . . (هذا جيد ، وأخيراً هنالك بديل سيخلصني منكَ) . .

أجل هنالك بديل ، لكنه قد رحل ، رحل بعد أن سقط قناعه ، كاشفاً لي كم كنت واهماً ، وأنا أجمع اطيافاً من الماضي ، وأركبها فوق ذلك القناع . .

أشعل سيجارة أخرى ، وهو يحاول كتم ضحكات ساخرة ، قد مزجتها الدموع بالحسرات . .

ـ لا تنساني . . لا تنساني . .

هي الاخرى ودعتني بذات العبارة ، وكأني مدونة للذكريات الحزينة . .

رحلت لأجد نفسي من بعدها جالساً بينكما ، جالساً بينكما لسبب كان يقسو علي ويجرني وراءه كالعبد . .

ـ وهو . .!!؟؟

ـ هو . . هو الشوق لأمي ، كنت أبحث عن قليل من حنانها ، لا لسلب شيء منك . .

كنت أشعر أني عائم على سطح الارض ، عائم وسط خيالات الماضي ، وأحتاج الى من ينتشلني من كل ذلك الضياع . .

ـ . . . .

لم أجد لكم الاتهامات والطعنات رداً ، فقررت الهروب ، ولا أعلم أي نوعٍ من الهروب سأختار ، لكنه مؤكد الهروب الذي سيأخذني بعيداً عن المواجهة . .

ـ ما زال الوقت باكراً على الهروب . .

ـ ليس لدي ما أقوله لك

ـ ومن قال أني أود سماعك . .؟ أنتَ هنا للإنصات مرغماً . .

ـ صلاح ؛ إياك أن تستفزني . .

ـ حقاً ؛ ها . . ها . . ها . . كم تضحكني اجاباتك السخيفة

ـ قد تجاوزت حدودك . .

ـ حقاً ؛ أنا آسف لم ألحظ تلك الخطوط الحمراء ، أين . . أين . . أين يا ترى قد رسمتها . .؟

وهو يبحث بين أثاث الغرفة بمشهد تمثيلي ساخر ، ويقفز من حولي كالبهلوان . .

وفجأة توقف ، كي يستعيد رشده وخبثه ، هامساً بأذني . .

ـ هل جرحت مشاعر طفلنا المدلل ، الذي لا مشاعر له . .؟ هل ستسامحني يا طفلنا الصغير . .؟ هل ستسامح نفسك ، التي لم تسأل يوماً ، كيف أن أمك أضناها المرض . .؟

هل ستسامح نفسك ، التي هجرت ذكريات والدك ، وامتنعت عن البحث في خبايا القلوب عن خيط وصل يمدها إليه . .؟ والآن ، قد حان وقت الهروب ، فلتهرب . .

قالها وهو يربت على كتفي ، لينتشلني من دوامة أفكار وذكريات ضبابية ، تجمعت وتشابكت فيما بينها ، فما كان بي إلا أن ألوذ بالفرار من ساحة الحرب ، بعد سماع نداء ينادي بالهروب . . لكن من ذلك المجرم الذي كان ينادي بإسمه داخل تلك الغرفة . .؟

والتي كانت أشبه بقاعة المحكمة . .

أهو أنا . .!!؟؟

هل أنا الوحش المخيف ، الذي استباح أحلامهم . .!؟

الذي يحيا على أنينهم وأحزانهم ، سارقاً من فوق شفاههم ضحكاته الشريرة . .!!

ومن تلك الضحية . .؟

هل كان صلاح . .!؟

منذ متى صار مستوطنة للأحزان ، وأين كنت تائهاً ضائعاً عن كل هذا . .؟

كيف لم أشعر بهم من قبل . .؟

وما الذي كان يجبرهم على تحمل تمردي طوال تلك السنين . .؟

أكانوا أضعف من أن يواجهوني . .!؟

أم كنت أضعف من أن يضيعوا وقتهم في مواجهتي . .؟

لم أعد أدرك شيئاً ، وكأني مجرد دمية غبية خلقت للعب بها ، ثم رميها حين لا تعود تستهوي أحداً . . أجل ؛ أنا مجرد دمية غبية ، تلهو بها الوساوس والأفكار . .

(13)

هل كنت واهم...؟

بدأ صــدى أصوات النوارس يتزاحم ،
ومــوج البحــر يتكســر فــوق الصخور
الســاحلية ، مــع نســائم الصبــح التي
جاءت تعلن عن قدوم يوم جديد . . .

يوم جديد وهي ما زالت تلازمني ، ترافقني ، تعانقني في شغف . .

وأنا أتوق لذاك العناق الجميل . .

وأنا أدمن العيش بقربها . .

إذ أنها لا تمل سماعي ، وتكاد تفقه حتى صمتي وكثيراً ما أبكاها بكائي . .

هي مخلوقة نقية وشفافة ،لم تفكر يوماً في خيانتي أو هجري . .

مخلوقة مني ولي وقد أسميتها بـ (عزلتي) . .

أنا وهي قد جمعتنا ذكريات كثيرة . .

دموع وأحزان وأحلام دفناها في خزانات الملابس . .

جمعتنا قصص ونحن نلهو بدمى سمراء واخرى شقراء ، حتى نغفو من التعب ، نغفو في أي زاوية في أي مكان . .

في الحديقة ، باحة المنزل الخلفية أو تحت السرير ، لا يهمنا ما دمنا معاً . .

معاً رسمنا على جدران الغرفة ، أماً وأباً واختين ترتديان فستانين واسعين كفستاني سندريلا ، ومن عيدان الكبريت لم يحالفنا الحظ أن نصنع غير سجادة . .

أما تلك الليلة التي كان المنزل فيها يعج بحفل كبير ، حفل اشغل كل من فيه عني . .

صنعنا من السلم الرخامي سريراً ، ورحت أنعس وأنعس كلما عزلتي داعبت خصلات من شعري . .

مداعباتها كانت تنسيني الجوع والتذمر الطفولي البريء ، فكنت إذا نسيت أمراً نعست اكثر ، حتى غفوت وغفوت ، لأصحو من بعد ذلك في أحضان أمي ، متذكرة كل شيء . .

أيام ربيعية كانت تعبئ حديقتنا بالورود والفراشات ، وأنا في عمر الرابعة ، أو ربما الثالثة . .؟

لا . . لا . . أظن إني كنت في الخامسة . .؟

مممم لست متأكدة كم كان عمري حينها ، فقد مر وقت طويل وما عدت أذكر ذلك جيداً . .

إلا أني كنت صغيرة ، صغيرة جداً وأنا أهرع الى العلية قبل غروب الشمس ، تاركة كل ما يشغل الأطفال من لعب وقصص أو حتى طعام . .

أهرع الى العلية لأجد عزلتي في انتظاري ، كي نفتح شباكاً صغيراً تتجمع عنده العصافير الناعسة قبل كل غروب ، وتودع بعضها البعض متمنية انقضاء ليلة سعيدة . .

أنا وعزلتي كنا نفتح الشباك الصغير لا لرؤية هذا المشهد ، إنما لرؤية عصفور ألفناه من بين جموع العصافير ، عصفوراً كان يشاركنا أسراراً صغيرة وأحلاماً كبيرة ، وهو يقف ويدور ويغيب ويرجع لكنه ينصت دوماً ولا يمل ، أو لربما خيل لي ذلك . .؟

لقاءاتنا عند الغروب ، غروب من بعد غروب ، ولقاؤنا الأخير ما كان لينقض فيه عهداً ، وأنا التي لا أخلف له موعدا . .

يومها جلست اشغل نفسي في نسج خيوط حكاية أهديها له عند اللقاء ، وعزلتي تهمس لي . .

ـ ألا تلاحظين شيئا غريبا في تلك العصافير . .؟ ألا تلاحظين بأن جميعها متشابهة؟ قد صرت أعجز عن تمييز صديقنا العصفور . .

ومن يومها ونحن نغلق الشبابيك ونخلف المواعيد ولا نثق بصداقة العصافير . .

لكني بقيت أتساءل ، كيف كنت واهمة ، عاجزة عن تمييزه ، وأنا التي ألفته بقلبي . .!؟

أم أوهمتني غيرة عزلتي ، حتى لا يشاركها أحد بصداقتي . .؟

في مرة جمعتنا حكاية مع جارنا العجوز . .

إذ تسللنا الى داخل منزله بطيش ، دون خوف بعد أن لاحظنا غيابه ذات صباح . .

وكم راق لنا ذلك المنزل البسيط والمرتب بصورة دقيقة ومثالية ، رغم افتقاره للمسة امرأة . .

كان هنالك يضع ملابسه المطوية والنظيفة وبقربها زجاجات العطر الفاخرة ، وعلى المنضدة كانت تتجمع أدوات رسم وقصاصات أوراق بأحجام مختلفة . .

كم كان جميلاً . . جميلاً ذلك المنزل . .

درنا . . ودرنا بين أركانه ، حتى وجدنا فيه ضالتنا . .

التي صارت بعد ذلك قبلتنا الوحيدة ، والتي صرنا لأجلها نتسلل دوماً ، حتى نصل برؤيتها حد الإشباع . .

مكتبة كانت تعاني التخمة ، بعد أن مُلأت بطنها بالكتب . .

تلك الكتب الجميلة ذات الملمس الناعم والعطر المميز . .

التي صارت تنادينا كلما لاحظنا غياب مالكها . .

كانت تنادينا ، رغم إننا لا نجيد قراءتها ولا نفقه ما بين السطور ، لا نجيد سوى النظر . .

النظر الذي يصنع من الصور ذكريات ، نستدعيها في لحظة شرود صامتة . .

عزلتي هي ملجأي ، شقيقتي ، صديقتي ، وأمينة أسراري . .

أنا هنا في هذا المكان شوقاً لها لا هروباً إليها . .

لِمَ قد أهرب . .؟

لِمَ الكل يبحث عني ، ويلقبونني بالقاتلة . .؟

ألأنه قتل مرة واحدة ، فيما أنا على يديه قتلت آلاف المرات . .!!

يلقبونني بالقاتلة . .!! وأنا طفلة ولدت مقتولة من أب خائن ، وأمٌ تحمل جنسية الأحزان . .

يلقبونني بالقاتلة . .!! وأنا طفلة تربت في كنف أب لاه ، ناسٍ الكثير ممن حوله ، وأمٌ تنصحني دوماً أن لا أثق ولا اصافح أي يد تمد لي ، حتى لو كانت بنية المساعدة . .

يلقبونني بالقاتلة . .!! وأنا التي كنت أصحو لأجده قد خرج ولن يعود إلا بعد أن أغفو ، تاركني مع أمٍ تهوى البكاء الهستيري . .

يلقبونني بالقاتلة . .!! وأنا التي لم أكن أسمع إلا عبارة (إني مشغول الآن) ، كلما حاولت الحديث معه . .

يلقبونني بالقاتلة . .!! وأنا القاتلة المقتولة . .

عشت في بيت خلا من كل المشاعر إلا الألم . .

الكل فيه يتألم أو يدعي الألم أو واهم بذلك الادعاء . .

الكل فيه يضيع ويضيعني معه ، وأي محاولة لي في البحث عن ذاتي خلف الأسوار الحصينة والعالية كانت نهايتها الفشل . .

الفشل الذي كنت التزم به الصمت متجاهلة كل من حولي . .

وفي كل مرة أتجاهلهم كانوا يفقدون شيئاً لهم في داخلي ، وكانت تنمو لنصيحة أمي ساقان ، وتبدأ بملاحقتي . .

(14)

ما الذي يوجد على الجانب الآخر من الحياة...؟

المـوت لحظـة فاصلـة ، تتوقـف بها
الأوقـات ولا تحتسـب ، لتأخذنـا من
رحلة قصيرة الى رحلة طويلة الأمد . . .

هذا هو الموت ، لكن ما هو الأسوأ منه . .؟

ما الذي يوجد على الجانب الآخر من الحياة . .؟

كيف يقع علينا الاختيار . .؟ هل يفضل الموت أن يرى على مائدته قرباناً سميناً . .؟ هل تلدنا الحياة لنكون قرابين الموت . .؟ وبعد يعقوب من هو التالي . .؟

كانت تعتريني الاسئلة ، بينما أتخيل وجه ذلك القتيل وهو يتوارى خلف جدران تابوته . .

من رأى جموع المدعوين يوم الحفل لا يصدق أن هذه الجنازة ليعقوب . .

جنازة تجمع فيها اشخاص لا يتجاوزون الخمسة عشر شخصاً ، وقفوا كأصنام خاوية من المشاعر . . خيالات لا تمتلك دموعاً تواسي رحيله أو حتى دعاء . .

الجميع يطالعون هواتفهم ، ساعاتهم متمنين الوصول للحظة التخلص من جثته ، حتى يلوذوا بالفرار أما أرملته فراحت تغطي وجهها بمنديل ، جعلني عاجزاً عن قراءة تعابيره . .

ـ ما الذي أتى بك . .؟

هذا السؤال المفاجئ أو الذي كنت أخشى سماعه ، جاء ليخرجني من خيالات أفكاري الغريبة الى واقع أغرب . .

حقاً ما الذي أتى بي . .؟ أكنت أنوي توديعه . .؟ أم سؤاله إن كان يخشى الموت . .؟ أم خيل لي أن أرى طيفها بين الحشود . .؟ لكن أين هي ، وأين الحشود . .؟ وأين الأيدي الخفية التي ستخطفني ، تنقذني من المحقق ، الذي لا أملك جواباً لسؤاله . .؟

ـ هل سيدفنونه . .؟

أخيراً غير سؤاله بطريقته الغبية المعتادة ، لكن يا له من مخلوق غبي . .!!

يرى الأرض قد فتحت فاها وتحضرت لابتلاع يعقوب وهو ما زال يتساءل ، هل سيدفنونه . .؟

هل ظن إنهم جلبوه ليستجم . .؟ أم سيرمونه بقرب القبر ويطلبون منه أن يتدبر أمره . .؟

ـ لِمَ ندفن الأموات . .؟

ينهال علي بأسئلته الغريبة دون فواصل ودون اعطائي فرصة للإجابة ، وكأن لدي طفلاً لحوحاً يحاول الإلمام بكل شيء في ثوانٍ . .

ـ هل تناولت فطورك هذا الصباح . .؟

ولكن ما علاقة هذا السؤال بما سبقه من أسئلة . .!؟ وما الذي سيثري معلوماته في تناولي الفطور من عدمه . .؟

ـ هل تفضل أن تأكل شيئاً من هذه الجثة . .؟

ـ ماذا . .!!

ـ في حال كنت دودة . .

أثار اعجابي سؤاله المقزز ،لكن . .

لو كنت دودة ،لو أعطيت لي فرصة التهام يعقوب ، مؤكد سألتهم حنجرته قاطعاً أوتار ذلك الصوت الذي يزعجني كلما تذكرته ، وتذكرت ما دار بيننا من حوار . .

ـ لو كنت دودة لأكلت كل شيء في هذه الجثة ، إلا أوتارها الصوتية ،لتخبرني اسم قاتلها . .

ـ . . . . !!

تباً ؛ هل له القدرة على قراءة أفكاري . .!؟ هل علي بقرب هذا الرجل أن أكون مشغولاً بالتفكير بعدم التفكير . .؟

ـ هل لكَ القدرة على الكذب . .؟

ـ لا . . لا . . فأنا دائماً . .

ـ يا ترى لمَ النساء قادرات على فعل ذلك . .؟

ـ جيد أنكَ لاحظت بكاءها المزيف ، وهي تدعي الحزن . .

ـ من تعني . .!؟

ـ أ . . أرملة يعقوب . .

ـ لماذا تنظر لها دوماً بعين الاتهام . .؟

صعقني سؤاله ، وكأنه كان يدبر لإيقاعي بشباكه ، وعلى ما يبدو قد نجح . .

هذا المخلوق الغريب ، لسحنة غبائه الطاغية على وجهه ، بدا يخبئ لها انعكاسات داخلية تكاد تحيرني وتخيفني . .

ـ ما الذي سيحدث لو أن يعقوب خرج الآن من تابوته . .؟

ـ مؤكد ، سيفر الجميع . .

ـ يفرون . .!! لمَ البكاء على الأموات ، ما دام أن عادوا الى الحياة سنفر منهم . .؟

إنه على حق ، لِمَ يفرون . .!! لمَ هذه الفلسفة الغريبة للخوف . .؟

ولمَ نخاف من الجثث ، بينما الأجدر أن نخاف من بعضنا البعض . .؟ الأجدر أن نخاف من تلك النفوس المريضة ، التي تسير بيننا والتي من شرها تخاف حتى الجثث . .؟

ـ لو أن يعقوب يخرج الآن من تابوته ، سأطلب لنا البيتزا وبعض العصائر وستدور بيننا احاديث طويلة . .

أصابني الغثيان من فكرة تناوله الطعام مع يعقوب . .

يعقوب الذي تسيل الدماء من ظهره ثم تتجمد ، وشحب وجهه وازرقت شفتاه ، وعيناه الجاحظتان صارتا أكثر رعباً بعد موته . .

يعقوب الذي كلما قضم قضمة من طعامه ، كان يلوكها مع لحم فمه الذي بدأ بالتفسخ . .

مع حفنة التراب الأخيرة التي رمتها آسيا فوق يعقوب ، استطعت أن أرمي فكرة ذلك العشاء البشع . . مع حفنة التراب الأخيرة لمحت طيفها من بعيد ، وخيل لي أنني قد تنفست عطرها المميز . . فملأني القلق لأجلها بعد أن اختفى المحقق من قربي . .

يا ترى أين رحل . .؟ هل راح يتتبعها . .؟ هل دفنوه مع يعقوب لتجمعهم عشوة يتسامرون فيها . .!؟

أم لم يكن هنا من الأساس . .؟

بدأ يختفي كل من حولي ويتبخرون كقطرات الماء ، تبخروا ولم يعد في هذا المكان سواي أنا ويعقوب الذي دس تحت التراب . .

دس تحت التراب بهدوء ،وكأنه الهدوء الذي تلى حياته العاصفة . .

هكذا تنتهي حياة البعض منا ، فراق هادئ بلا دموع بلا عناق ، فراق هادئ تبني الليالي على اطلاله مستوطنة نسيان . .

بعد فترة ليست بالقصيرة ، وجدت نفسي أتبخر أنا الآخر وسط طريق طويلة ، طريق أجهل الى أين ستأخذني ، بعد أن عجزت عن خلق حوار مع يعقوب . .

فصعب على من لا يجيد المجاملات ، خلق حوار بلا مشاعر . .

أتبخر وسط طريق مسحور ، كلما لاحت نهايته لي وجدتها مجرد سراب . .

سراب جعلني أتتبعه وأتتبعه ، حتى حضر الليل وخرجت الضوضاء من مخابئها وبدأت تسيرني قدماي وتأمراني بالعودة الى نقطة البداية ، الى قبر يعقوب . .

لأجد ضالتي عنده . .

ـ صوفيا . .!!

ـ عصام . .!!

ـ قبل ساعات . . عطرك . . لمحت طيفك . . لا أعلم كيف أصف لك . . هي . . هي . . هي روحي من أعلمتني بوجودك ، فهل كانت على حق . .؟

ـ أجل ؛ كنت هنا منذ ساعات ، كان علي أن اتأكد من أن قصتنا قد انتهت ، كان علي أن أطوي الصفحة الاخيرة من حياة الجزار الذي قتل بسكينه . .

ـ . . . . !!

ـ علي الرحيل الآن . .

ـ صوفيا ؛ انتظري . . الى أين أنتِ راحلة . .؟

* * * * * * *

الى البعيد ، الى الصمت ، قرب أمواج البحر الكئيبة ، كانت تزور عزلتها احياناً . .

وكانت تخبئ بين ثنايا منزلها العتيق ، ملجأها السري ، أسرارها دوماً . .

ـ منزلنا أنا وأمي ، فيما مضى . .

شردت قليلاً ، متنهدة بصعوبة ، وهي تحاول خلق ابتسامة شاحبة من نسل الأحزان . .

ـ بعد رحيلها صار منزلي أنا و . . وشخص آخر . .

ـ وهو . .!؟

ـ عزلتي . .

ـ ولكن ألا ترين إنه . .

ـ سأعد القهوة لكلينا

غرقت في أعماق المطبخ ، وتركتني عائماً بين تفاصيل منزلها الغريب والموحش . .

منزل لا أعلم أي طراز يمتلك ، إلا أنه قد رتب بلمسات الأشباح . .

سترت الأقمشة البيضاء بعض أثاثه والبعض عرته صوفيا ، فكل شيء هنا يستخدم على قدر الحاجة ولم يعد بالإمكان الحكم عليه أن كان حياً أو غير حي ، مسكوناً أو غير مسكون . .

وفوق رف المدفئة تجمعت إطارات الصور بشكل مزدحم ، وهي تحتضن بين أركانها طفلة جميلة وامرأة تفوقها جمالاً . .

أشياء كثيرة وضعت على الرفوف ، في الزوايا أو معلقة على الجدران . .

كأن المنزل يرفض أن يخفي أسراره ، أو ربما هو صندوق أسرار وذكريات ، وقد تطفلنا نحن الأثنين عليه . .؟ أو قد أكون أنا المتطفل الوحيد هنا . .؟

أما هي فقد صارت مجموعة أسرار وذكريات ، لا تتجزأ من هذا المكان . .

كنت أتتبع عطرها المميز ، الممزوج بسحب قهوتها الساخنة ، وأنا أتخيل كيف أن القهوة تسرق طعم السكر من فوق أناملها . .

حين بدا لي باب ذو قفل ثقيل وسلاسل ومفتاح ، ليشغلني عن متابعة طريقي . .

باب حين تجاوزت سلاسله ، أدهشني ، أرعبني ما خبّأ ، ما سجن وراءه . .

غرفة لم يستطع العيش في داخلها سوى ثلاث مرايا وكرسي خشبي . .

ثلاث مرايا ترمي بثقلها على الأرض ، ولها ذات التصاميم والقياس ، كما أحاطت نفسها بإطارات جذابة مزخرفة ، بدت فيها كالأميرات . .

وانحنى أمامها كرسي عجوز ، بدا بخشبه المتآكل ولونه الأجرب ، كخادم حقير أو متسول جاء يلتمس العطايا من بنات الملوك . .

وعلى خلاف باقي المنزل للغرفة إنارة خافتة ، تثير الرعب في النفوس ، وكأن الغرفة قد صنعت لتحاسب النفس فيها نفسها . .

دون أسباب . . دون نوايا . . دون إدراك . .

وجدت نفسي أمتطي ذلك الكرسي الكهل ، والذي لم يفاجئني بقوته وعدم انكساره بقدر ما فاجأتني تلك المرآة العمياء ، والتي تقف عاجزة عن رؤيتي . .

منذ متى والمرايا تصاب بالعمى . .؟ وهل هي مرآة عمياء أم أنني شبح . .؟

لا . . لا . . لست بشبح ، فعن يمينها وشمالها تلوح صورتي في عيون أختيها . .

هي تستحقرني ، تحسبني نكرة ، لا وجود لي في حضرتها . .

ولكن لماذا . .؟

وأي منزلة أسكنتني . .؟ أي منزلة تلك التي جعلتها تبصر هذا الكرسي الحقير ولا تبصرني . .؟

في زحمة تساؤلاتي ، بدأت الغرفة تدور . . وتدور . .

وبدأت من خلف المرايا تظهر اشباح لها ضحكات عالية مرة ، ومرة لها عويل . .

وعن يميني وشمالي بدأ الجنون . .

انعكاسات مختلفة لوجهي في ذات اللحظة ، داخل المرايا ودون إرادتي . .

لست أنا ، هو جنون ، هو شبح استعار وجهاً كوجهي . .

علا عويل الأشباح مع قرع الأجراس ، ومع قدوم روائح الموت التي احتلت أرجاء المكان . .

وشيء صار يتسلل الى داخل رأسي ويثير جنوني ، كلما توغل أكثر . .

فأغمضت عينيّ وأنا أفجر صرخة مرعوبة ، أحاول فيها ايقاظ كل ما هو في داخلي وإبادة كل ما هو حولي . .

رويداً . . رويدا . . عمّ السكون المكان وهدأت نفسي ، لتبصر ما هو حولي ببطء شديد ولأجد نفسي داخل الغرفة ،لكن لوحدي . .!!

لا كرسي لا مرايا من سلالات الملوك ، الكل قد رحلوا . .

رحلوا هم وأشباحهم ،ليتركوا لي شباكاً وحيداً يكسوه الضباب . .

كيف يكسوه الضباب ، ونحن في فصل الصيف . .!؟

هل أنقذتني صرختي من جنون الى جنون . .؟

رحت أزيح قطرات أثقلت بلور ذلك الشباك ، وأنا أكشف عن حديقة تناسقت فيها الأشجار التي تحتمي تحت ظلالها الحشائش والورود . .

وأنا أكشف عن شعيرات تجمعت وتشابكت فوق ذقني . .!!

لكن لم يستهوني الأمر يوماً ، لم أفكر أن أربي لحية فيها العجائز تتخلل جموع الشعيرات الشابة . .!!

لحية تقف عاجزة بعد أن اخفت نصف نحول وجهي أمام تلك الهالات التي تحيط عينيّ والتي أحالتني لشبح أو ميت لم يجد سبيلاً للهروب من الموت . .

إذ أن الموت يقف خلفه بابتسامة عريضة ، وعيون جاحظة . .

أرى صورته في البلور واقفاً خلفي . .

إنه هو ، ولكن لماذا جاء الآن . .؟ هل جاء ليدعوني على العشاء . .؟

لكني لا أريد تناوله مع الأغبياء أو الموتى ، أريد ، أتمنى أن أذوب وأتلاشى عبر البلور . .

قبل أن ينقضّ علي يعقوب الذي . . الذي . .

وضع يده فوق كتفي . .

ـ عصام . .

ـ لا . . لا . . لا . .

ـ عصام . .

ـ ابتعد عني أرجوك ، لا تؤذيني . .

ـ عصام ، أنا صوفيا . .!!

ـ صوفيا . .!!

الغرفة ، المرايا الثلاث ، الكرسي العجوز ، والإنارة الخافتة مع الصمت الرهيب . .

كل شيء عاد لسابق عهده ، بعد أن وضعت يدها الخائفة فوق كتفي وهي تنتشلني من دوامة الأشباح . .

ـ أكنت تحلم . .؟ أم . .

ـ لا أعلم . . لا أعلم ما كان ذلك . .

ـ لكن لمَ أنت هنا . .؟

ـ أنا . . أنا آسف لاقتحامي خصوصياتك . .

* * * * * * *

جلسنا في غرفة الضيوف نحتسي القهوة ، ومع كل رشفة لي كان الفضول ما زال يأخذني لتلك الغرفة المسحورة . .

شيء فيها يناديني ، أكاد أسمع صوتاً حبيساً بين أركانها وهو ينادي باسمي . .

ـ ما تلك الغرفة . .؟

ـ أتعني غرفة العزلة . .؟

ـ العزلة . .!!

ـ أجل ، فهي رتبت لأجل ذلك

ـ لم أفهم . .

ـ لم تفهم ماذا . .؟

ـ أعني هل تعتزلين في داخلها . .؟ و . .

ـ وما نوع الطقوس التي أقيمها . .

ـ أجل . .

ـ لا طقوس ، لا شيء ، مجرد أن أجلس لأحاور ثلاثة نساء أثق بهن ويثقن بي . .

تجيب عن ضجة أسئلتي بكل هدوء ، وهي تفتش جيوب سترتها بحثاً عن شيء ما . .

سيجارة . .!!

إنها سيجارة ، ذلك ما كانت تبحث عنه . .

تنفث دخان سيجارتها بصورة متقطعة ، محاولة كالأطفال صنع رسوم وأشكال منه . .

ـ هذه المرة الأولى التي أراك فيها تدخنين السجائر . .!!

ـ لأنها المرة الأولى . .

ـ ولكن لماذا . .؟

ـ الحرية . .

ـ الحرية . .!!

ـ بعد أن نلت حريتي ، صار علي أن أجرب أبسط مذاق لها ، حتى لو كان في سيجارة

ـ . . . .!!

ـ ألا تراني محقة في ذلك . .؟

ـ أراك غريبة الأطوار قد صرتِ . .

ـ ها . . ها . . ها . . ، غريبة الاطوار . .!!

صارت تطلق ضحكات عالية وغريبة ، كغرابة حالها . .

وفجأة رحلت تلك الضحكات ليحل بدلاً منها سعال متقطع ، بعد أن ابتلعت سحابة من دخان سيجارتها . .

ناولتها قدح ماء فانقضت عليه وكأنه فريسة ، لتسكب نصفه على قميصها والنصف الآخر تبتلعه بشراهة إنسان الغاب ، ماسحة بعد ذلك بكم القميص أي أثر له من فوق شفتيها . .

ثم تداركت نفسها ، وعادت لمجرى الحديث . .

ـ ماذا كنا نقول . .؟

ـ لا تشغلي بالك ، لم يكن بالشئ المهم . .

ـ . . . .

ـ صوفيا يجب أن تنهي هروبك ، يجب أن تثبتي براءتك فهذا . .

ـ ومن قال إني بريئة . .؟

صعقتني بعبارتها المجنونة ، لكن لم تراودني الشكوك ، فقلبي مؤمن ببراءتها . .

لم يخدعني يوماً أو يفكر في خداعي . .

ـ قلبي . .

ـ ما خطبه . .!؟

ـ قلبي يقول إنك بريئة

ـ هل يأخذ القضاة بكلام القلوب وأحكامها . .؟

ـ هل يكفيك حكم قلبي . .؟

ـ مؤكد لن يكفيني ، فما نفع قلبك أمام هذه القضية . .؟

ـ . . . . !!

أجوبة جامدة ، خالية من المشاعر ونظرات لا أود أن أجد تفسيراً لها . .

بعد أن صرت أرى يعقوب فيها . .

إنه هنالك يتربع في داخلها ، تحمله في عروقها ، هي جزء منه كما صار جزءاً منها . .

سارت بخطوات أنيقة ، نحو زحمة صور ذكرياتها مع أمها ، ولحظة وصولها قالت . .

ـ كان يدعي العمى لرؤية دموعي ، دموعي التي كنت أبكيها وأنا أرى ذكريات أمي تقذف خارج أسوار مملكته ، تخلصوا من كل ذكرى لها . .

شعرت بأنهم سيتخلصون من الجزء الذي يخصها في داخلي حتى ينفوه بعيداً . .

لأضحى بنصف جسد ، بنصف إنسان يقبع داخل غرفة في آخر ممر كانت تحمل جدرانه صوراً تتشاركها أم وصغيرتها . .

لأضحى بنصف جسد ، بنصف إنسان يقبع داخل غرفة في آخر ممر صارت عارية جدرانه وهي ترتجف حياءً وخوفاً ، منتظرة من يكسيها ويسترها من نظراتهم الجارحة . .

اقتربت منها لأنتشلها من رياح الذكريات الحزينة والمؤلمة التي كانت تعصف بها . .

ـ إن الحزن الذي يستوطن داخلك ستكون نهايته على يدي ، سأقاتل جيوشه لأجلك ، سأنسيك الألم وسأمحي كل أثر له . .

ـ . . . .

ـ لن أتخلى عنك ، سأبقى بقربك دوماً وسأشهد أمام القضاة ببراءتك ، وبأنك كنت ليلتها في السيارة معي ، وأنك لم . .

ـ ها . . ها . . ها . . السيارة . .

دخلت في نوبة ضحك جنونية ، نوبة ضحك جعلت منها إنسانة أخرى . .

إنسانة لا أعرفها ، لا تشبه تلك البريئة ، الرقيقة . .

صرخت بها محاولاً إنهاء تلك النوبات السخيفة . .

ـ ما المضحك . .؟ ما . .

ـ ها . . السيارة ،ها . . ها . .

بدأت تضغط على بطنها خشية أن تنفجر من الضحك ، فأثارت جنوني ووجدت نفسي أهزها كجذع شجرة ، حتى أخرس ضحكاتها . .

ضحكات . . ضحكات . . ضحكات . .

هزي لذاك الجذع ، ما كان إلا محاولة بائسة انتهت بفقداني السيطرة على عقلي ، وتفكيري ، وحواسي فقدت السيطرة على كل ذلك ، إلا يدي التي نزلت على خدها الأيسر ، لتجلب الصمت . .

الصمت تلك القمة التي كنت أنوي الوصول إليها ، وقد وصلت . .

ـ أنا . . أنا . . أنا آسف يا صوفيا ، أرجو أن تسامحيني فقد . .

نظرت لي ، وهي ما زالت تخفي بيدها أصابعي المحفورة على خدها ثم قالت . .

ـ في السيارة دليل إدانتي . .

ـ إدانتك . .!!

بعد ساعات مكثتها داخل منزل العزلة ، وبعد ما جمعتنا أحاديث أكثر عزلة من العزلة نفسها . .

أجد نفسي واقفاً على عتبات بابها وقد تملكني شعور رهيب . .

أشعر أني أقف في نهاية هذا العالم ، بين الوعي ولا وعي ، لا أدرك من الحقيقة إلا شيئاً واحداً وهو إني ما زلت أحبها . .

أحبها بشكل مؤلم ، بشكل موجع ، وأحتاج للشفاء منها . .

(15)

كم مضى على موتك...؟

تعلمت في الهوى كيف الورود تخون ،
فــي لونها ، في حســنها ، في ســحرها
كيف تجذب كل عاشــق فيها ومفتون ،
ليرتوي من عبق عطرها حد الثمالة فلا
يعود يعرف من يكون . . .

من أكون . .؟ من أنا . .؟ من ذاك الذي أماتني قبل الموت . .؟ وكم مضى على موتي . .؟

وكيف ، وأين ، ومتى قد مت . .؟

متى قد صار جسدي تابوتاً لروحه ، روحه التي قد مر دهر على موتها وهو ما يزال على قيد الحياة . .؟

ـ عصام . . عصام استيقظ يا بني . .

من بؤرة أحلامي يأتيني صوت أمي يطلب صحوتي ، بينما يزداد عنادي فأرفض . . وأرفض . .

لا أريد أن أصحو ، أريد الغوص أكثر ، أريد إغراق عقلي بأوهام ، بأحلام ، بأضغاث لا يجيد تأويلها كاهن أو عالم أو حتى عراف . .

أريد إغراق عقلي بالكوابيس حتى ، فللكابوس وجه وللغادر وجهان . .

أول الغيث قطرة . .

إغراقي لعقلي قد بدأ ، وبدأت معه حيرتي . .

فها أنا أقف عاجزاً عن وصف الحالة التي أمامي . .

أمامي مجنونة ترمي بثقلها لخنق أختها التوأم ، التي لا تبدي أي مقاومة أو يسمع لها أنين ، تلك المجنونة قد صنعت من أختها وسادة ترتاح على عاتقها ، رغم أنه لا يبدو عليها التعب . .

لكن لـمَ تلك المجنونة تحاول قتل أختها . .؟ ولـمَ الأخيرة تبدي هذا الاستسلام . .؟

لـمَ كل هذا الاستسلام . .!؟

هل يعقل أن أكون واهماً . .؟

أن تكون المجنونة ما هي إلا أخت حنونة تضم أختها ، تخلصها من برد أو خوف أو تحاول مواراة خجل أو عيب فيها . .

أن يكون هنالك عذر ، سبب في أن تعتلي ، تلك الساق المجنونة توأمها وتواريها . .

ربما قد يكون . .

فللظنون آلاف التفاسير وللنوايا تفسير واحد . .

أمامي تجلس أرملة يعقوب واضعة إحدى ساقيها على الأخرى ، لن أطيل من انشغال فكري في أمرهما ولا يهمني ذلك من الاساس . .

المهم إني ما زلت أحلم ، ما زلت أهرب من واقعي المرير . .

نهضت من مكانها ، ثم بدأت تسير نحوي بابتسامتها المصطنعة ، وبعد أن أحكمت القبض على ذراعي رحنا نسير معاً . .

لا تترك ذراعي رغم إننا نسير كالأغراب ، ولا يتملكني أي ذهول أو تساؤلات من نوع ، كيف ، ولِمَ . .

فأنا مستسلم تماماً لكل الجنون ، لكل الهذيان الموجود بين طيات هذا الحلم . .

ـ هل تود رؤية أحد ما . .؟

سؤال غير متوقع وغريب ، والأغرب هو شعوري ، فمن بين كل الشخوص المقيمة داخل عقلي ، أجد نفسي أود رؤية أمي ، وبشدة . .

ربما لأن هذا الشعور ما هو إلا شعور طبيعي . .؟

فأمي ، وطن ، ملاذ أمن ، يحتويني لحظة خوف ، لحظة ألم وضياع . .

ـ أمي . .

ـ ومن غيرها . .؟

من تعني . .؟ في حضن أي حوار تود زجي . .؟ أتعني صوفيا . .؟ مستحيل لا أود رؤيتها ، وأن كان يعقوب فهذا ما بعد المستحيل . .

ـ أليس هذا المحقق . .؟

ـ المحقق . .!؟

ـ أجل ، ألا تذكرينه . .؟

ـ أتود الجلوس معه . .؟

حشرتني بجانب المحقق قبل أن تسمع مني جواباً بالقبول ، ثم هربت من حلمي بثوبها الأبيض البسيط وشعرها الأحمر المتناثر

فوق كتفيها . .

مبقية عيني معلقتين بطيفها ، تراقبانها وهي تختفي ببطء من حلمي الغريب . .

ـ لمَ الصباح يأتي باكراً ، بينما الليل يأتي دوماً متأخراً . .؟

ترى ما الغاية من هذا السؤال . .؟ وما المهم في من يأتي باكراً أو متأخر . .؟ هل كانوا يتقاضون عن ذلك راتباً منه . .؟

لكن يا لسخرية هذا الحلم الذي زاد من وزن المحقق ، ليجعل من بطنه كبطن حامل في شهرها العشرين وهي ما زالت ترفض الوضع . .

بطن جعلت من قميصه وبيجامته يبدوان وكأنهما من أيام طفولته . .

ـ كنت سأمسك به ، لكنه هرب . .

ـ من . .؟

ـ لو أني لحظتها تمكنت من ذلك ، لكنت أبرحته ضرباً

ـ ما السبب . .؟

ـ ألم أخبرك سابقاً . .؟

ـ أخبرتني . .!؟

ـ أجل ، أخبرتك أكثر من مرة . .

ـ حقاً ، يبدو أني قد نسيت . .

ـ أنت تنسى كثيراً

ـ إذاً فلتخبرني بذلك مجدداً . .

هنالك فضول يدفعني لمعرفة ذلك الشخص الذي يتحدث عنه ، والذي يدعي بإخباري بأمره . .

ـ سأخبرك بعد أن أتناول غدائي . .

ـ ها . . ها . . أهم شيء لديك هو الطعام

ـ أتسخر مني . .؟

ـ لا . . لا . . أنا آسف سيدي المحقق ، لم أعنِ ذلك

ـ هذا هو أنت ، دوماً تسخر مني . .

نهض غاضباً ، وراح هو الآخر يهرب من حلمي ، ليتركني جالساً وحدي على أريكة خشبية تتربع وسط حديقة جميلة ، خيل لي أني قد رأيتها من قبل في علم أو حلم ، لا أدري ، لكنها تثير في نفسي شعوراً أعجز عن وصفه . .

ـ عصام . .

ـ صلاح . .!!

الحظ العاثر، هو حين تقرر الهروب بأحلامك ممن تكره، لتجدهم يلاحقونك ويظهرون فيها . .

ما الذي جاء به، ألا يكفيه إني تركت له واقعاً طويلاً عريضاً ليعيش فيه بحرية بين كل أبعاده . .؟

ما الذي يريده من حلم غريب ساخر وبسيط، يلاحقه، يحشر نفسه بين تفاصيله . .؟

ـ لَم أنت متفاجئ برؤيتي . .؟

ـ على العكس، لو أني لم أرك لتفاجأت . .

ـ هل تود الخروج من هنا . .؟

ـ لا . .

ـ غريب . .!!

ـ وما الغريب . .؟

ـ لم أتصور أن أسمعك ترفض يوماً . .

ـ لأنك تتصور أن أذنيك قد ركبتا لسماع موافقتي فقط . .

ـ . . . .!!

ـ أتعلم شيئاً ، هذا الحلم هو لي ولن أخرج منه ، هنالك غيري من عليهم الخروج . .

ـ يبدو أنك ما زلت متعباً . .

ـ جداً ، لكن الكل يلحق بي ، ولا يدعني أرتاح . .

ـ حسناً ، ألم تشتق لأحد ، أعني أتود رؤية أحد ما . .؟

ما أمرهم اليوم . .؟ لمَ يحاولون تذكيري . .؟ وما هذا الحلم الغريب . .؟ أأحاول الهروب به أم يحاول الهروب بي . .!؟

ـ لا . . لا أود رؤية أحد ، والآن فلتلحق بهم . .

ـ من تعني . .!؟

ـ آسيا والمحقق . .

ـ المحقق . .!؟

ـ . . . .

ـ حسناً ، سأتركك لترتاح . .؟

كيف لي أن أرتاح . .؟

وأنا لا أستطيع التخلص منك ومن أمثالك الذين يلهثون ورائي ، الذين لا يتركونني أخلو مع نفسي ، حتى في الأحلام . .

يلهثون وراء حلم سخيف بلا معنى ، كالواقع الذي هربت منه ، حتى أحصل على درجة امتياز في الفشل . .

حتى أصير عاجزاً عن بناء حقيقة أو حلم ، تائهاً دون مأوى ، تائهاً بين الحياة ولا حياة . .

أسرني مشهد عصفور صغير قد أحاطت به العصافير وهي تشجعه على الطيران ، على فرد شراعيه بوجه الريح ، حتى يرمي جسده من أعلى غصن الى أحضان المجهول . .

ـ حلق ، لكن قبل أن تحلق فلتسأل نفسك ، هل أنت أكيد من ولاء جناحيك . .؟

لا يغرك صفيرهم وأناشيدهم الحماسية ، لا يغرك حبهم ولا تغرك الأحلام ، فكل ما قد سبق أن هويت سيهوي معك وستتبعثر ويتبعثر كل ما هو حولك . .

أن هويت ستصبح أناشيدهم نكات ساخرة يتذكرونها في لحظات سمر ، وسيصبح حبهم مجرد شفقة ، أما الأحلام فستضحى كوابيسَ . .

يا صغيري لا تثق بأحد غيرك ، وتذكر أن تتأكد من ولاء جناحيك . .

من هذا . .؟ كيف تسلل الى أحلامي . .؟ كيف أشغلت نفسي بتفاصيله . .!؟

أي حلم هذا الذي يأتي بهم جميعاً . .؟

أتى بجميع من أكره إلا صوفيا ، رغم كرهي لها لم تأتِ . .

ـ كيف الحال . .

وهو يمسك بيدي ويجبرها على مصافحته ، ليتبعها بابتسامة فاضحة لبيت زعيم السوس . .

ـ ما بك يا رجل ، لمَ أنت دائم العبوس . .؟

وما الذي يجعلني أبتسم بوجه الحمقى . .؟ وما الذي يحمله هذا الوجه القبيح من تعابير تدعو للابتسامة . .؟

ـ ألم تتذكرني . .؟

وكيف لي أن أتوه عنك وعن أمثالك ممن يلتصقون بي في صحوتي ونومي . .

ـ على ما يبدو أنك لم تتذكرني . .

مصرّ أن يعرفني بشخصه ، وكأنه نجم مشهور وعلى الجميع معرفته والصراخ كالمجانين لحظة رؤيتهم إياه ، حتى يتكرم عليهم بتوقيعه وصورته البشعة مع زعيم السوس . .

ـ أنا جمال هل تذكرتني . .؟

لا نصيب له من اسمه وبقاؤه هنا واستمراره بالحديث ، سيكون نصيبي السيء حتماً . .

ـ أتذكر حينما . .

ـ ألن تكف عن الكلام . .؟ ألن تمل من الوقوف أمامي وأنا أحاول تجاهلك . .؟

ـ . . . . !!

ـ هيا . . فلتلحق بهم ، فلتخرج من حلمي ، قد ضقت ذرعاً من وجودكم فيه . .

ـ اهدأ . . اهدأ . . سأذهب . . سأذهب في الحال

ـ الى أين أنت ذاهب . .؟

ـ . . . . !!

ـ بوابة الحلم من هذا الاتجاه . .

ـ بوابة الحلم . .!!

ـ أجل بوابة الحلم ، كيف دخلت إذاً . .؟

ـ البوابة ؛ أجل تذكرت إنها في هذا الاتجاه ، لكني لم أدخل من خلالها فقد تسللت عبر السور

ـ حسناً ، فلترجع من حيث أتيت ، وإياك أن تتسلل مرة أخرى لأحلامي

ـ أطمئن لن تراني مجدداً . .

لم أرَ مثل هذا الحلم من قبل ، هو أسوأ من كل الكوابيس المعبأة بالأشباح والجن والشياطين والموتى . .

ـ عصام . . عصام . . استيقظ يا بني . .

عاد صوت أمي ليناديني طالباً صحوتي ، وفي لحظة مناداته لمحت طيفها يلج بوابة أحلامي . .

جاءت صوفيا ، جاءت من كانت بلسمي ، طبيبتي ، جاءت من أضحت وجعي قاتلتي . .

جاءت . . وجاءت معها نداءات أمي المتكررة ، حتى أيقظتني . .

(16)

لمَ قد نسامح...؟

صــرت أكرهــك ذلك الكــره الجميل الذي لا ينســيني إياك ، صرت أكرهك ذلــك الكره الرحيم الــذي يخفي بين أضلاعه حباً وشــوقاً ، صــرت أكرهك ذلك الكره الغريب الذي يخيفني منك وعليك . . .

ـ هل هي القاتلة . .؟

ـ . . . .

ـ هل ستقف الى جانبها . .؟

ـ . . . .

ـ اليوم ألقوا القبض عليها ، وربما في الغد ستعترف بجريمتها . .

ـ . . . .

ـ ابتعد عنها يا بني

ـ . . . .

ـ أي زمان نحن فيه ، رحماك ربي . .

أي زمان هذا الذي أبتلي فينا وما الخطايا التي جناها ، ليعاقب بأمثالنا . .

لا أعلم ، لا أعلم أي زمان هذا يا أمي . .

ـ الى أين أنتَ ذاهب يا بني . .

ـ لا أعلم

ـ ستذهب إليها أكيد

ـ لن أذهب . .

ـ هل تعدني بذلك . .؟

ـ ربما سأذهب لرؤية صلاح

ـ أتقول الصدق . .؟

ـ تستطيعين الاتصال به لتتأكدي

* * * * * * *

ـ لا داعي من أن تطيل من نظرات الاستغراب ، فخطواتي هي من سيرتني إليك بعد أن أحست بحاجتي لشخص يسمعني . .

ـ لا مانع لدي . .

ـ . . . . !!

ـ أنا أسمعك . .

ـ على ما يبدو ستبقى أفضل مني ، كما كنت دوماً ، الأفضل في الدراسة في العمل في تحمل المسؤولية وحتى في نظر أمي . .

لم أكن أكرهك بقدر ما كنت أغار منك ، ربما السبب هي أمي ، أو أنانية الحب وكيف أن كل واحد فينا يريدها أن تكون ملكه ، خاصته لوحده ، حتى لو كان على حساب مشاعر الآخر . .

نحن الأثنين قد أخطأنا ، كان علينا كشف الأوراق منذ وقت طويل ، ربما كنا سنصبح حينها أصدقاء حقيقيين أو . .

لم يدعني أكمل حديثي ، حديثي الذي ربما قد فطنه وكره سماعه بأسلوب مطول وممل . .؟

فنهض من على كرسيه طالباً مني المصافحة ، والتي أجهل غايتها تماماً . .

ـ أنا مسامحك على كل ما مضى ، ولنبدأ صداقة جديدة وحقيقية . .

بهذه البساطة ، بهذه السرعة . .!!

كنت أخال بعد مصافحته لي أنه سيطلب مني الرحيل وانهاء اللقاء ،لم أتخيل بأنه سيسامحني . .

كنت أظن أن المسامحة تحتاج أياماً أو أعواماً أو ربما حياة ثانية ، فجميعنا قادرين على نكره بسهولة لكن لسنا قادرون على المسامحة دون صعوبة . .

ومهما تمكنت الطيبة منا وتغلغلت بدواخلنا يبقى أشخاص يتربعون في داخلنا في فراغ مظلم لا يطالهم عفونا ولا يمحي زلاتهم النسيان . .

لكن يا للعجب أن يكون شخص مثل صلاح قادراً على النسيان والمسامحة بكل سهولة . .!!

وجدت نفسي أجر يدي من بين يديه ، أجر جسدي من منزله دون أن أنطق بأي كلمة أو اجابة عن الأسئلة التي رسمت فوق لوحة وجهه . .

أجر قدميّ ومن خلفي تتبعني آلاف التساؤلات ، تقوم بإزعاجي ، تسعى لتوهاني عن الطريق وجعلي أتعثر باللا شيء . .

هل علي أن أسامحها ، وكيف لي ذلك . .؟ ولَم قد أسامح مجرمة ، قاتلة محترفة هوايتها قتل من أحبوها بدم بارد . .؟

لمَ قد أفعل ذلك . .؟ ولمَ قد نسامح . .؟

هل لأجل العيش مع من خدعونا . .؟ ولمَ نعيش معهم . .!؟

لمَ سامحني صلاح ، وعلى ماذا . .؟

فأنا لم اخطأ بحقه ، ولم أطلب منه السماح . .

هل أراد أن يعيش دور الرجل الصالح صاحب القلب الكبير الذي يغفر زلات اصحابه دون عتاب . .؟

هل ظن إنه يصلح لتجسيد هذا الدور . .؟

كيف ذاك الأحمق زج نفسه في دور البطولة ، مع أن الدور لا يناسبه ابداً . .!؟

لكن ، هل يناسبني هذا الدور . .؟ هل أنا أهل لأجسد دور الرجل الصالح الذي سيغفر زلاتها بلمح البصر . .؟

لا . . لا أظن ذلك ، فأنا لست الرجل الصالح ولاهي تستحق الغفران . .

* * * * * * *

يا لحظي السعيد . .

ليت ذاك السمين يصحو كل يوم لأقتله ، فتمطر آسيا علي مثل هذه النقود . .

لكن ، ماذا كانت تعني بقولها (ألم يكفك ما سرقته . .؟) ، ترى ما الذي سرق . .؟ ما الذي فاتني ، ومن ذاك الذي تجرأ على أن يشاركني وليمتي . .؟

* * * * * * *

ـ هل أنت أكيدة من ذلك . .؟

ـ أجل ، يا عزيزي

ـ حسب علمي أن اكتشفت حقيقة عمله ، فقد تصادر جميع ممتلكاته

ـ جميعها . .!!

ـ ما رأيك لو نشاهد هذا الفيلم . .؟

ـ دعني الآن ، يا صلاح

ـ هل أنتِ بخير . .؟

ـ هل يعقل أن تنتهي حياتي مع يعقوب بتلك الصورة . .؟

ـ لِمَ تفكري بيعقوب الآن . .؟ وأين أنا من حياتك . .؟

ـ صلاح ، أرجوك لا تخلط الأمور ببعضها فحبي لك أمر وتفكيري بيعقوب أمر آخر

ـ وبماذا تفكرني الآن . .؟

ـ عقلي مشوش

ـ . . . .

ـ ألديك حساب مصرفي . .؟

ـ حساب . .!! أجل لدي

ـ هذا جيد . .

ـ بما تفكرين . .؟

أفكر في الشخص الذي سيفتح مغارة اللصوص ، ليجلب لي كل ما فيها ، وهو . . وهو . .

ـ جمال . .

ـ جمال . .!!

ـ جمال عينيك يأسرني ، وكأني أول مرة أراه

ـ . . . . !!

ـ أين الفيلم . .؟

ـ سأسافر عما قريب . .

ـ هل ستتركني في هذه الظروف الصعبة . .!؟

ـ علي أن أتدبر الأمور قبل أن ننتقل للعيش معاً

ـ لكن . .

ـ كنت أخال نفسي سأفارقك مرة أخرى ، لأسافر وحيداً وأقضي بقية حياتي في الغربة . .

لم اتوقع بأن القدر سيقف هذه المرة الى جانبي ، ويبعث أحدهم لقتل يعقوب ويهبك حريتك ، إلا إذا . .

ـ ماذا . .؟

ـ إلا إذا كنت أنت من تدبر أمر مقتله

ـ أنا . .!! أنا لا أنكر أني فكرت في قتله ذات مرة ،لكن ذلك كان في لحظة ضعف ، وبعد أن انقضت نسيت الأمر برمته صدقني . .

لكن كيف يخطر على بالك أن أكون قادرة على قتل شخص ما ، أتراني عديمة القلب والمشاعر . .!؟

ـ أنا آسف حبيبتي ، لكن أمر مقتله قد فاجأني

ـ ولمً المفاجأة وقد كان لديه العديد من الأعداء . .؟

ـ سأشتاق لكِ . .

ـ أما أنا فلا

ـ ما زلت غاضبة . .؟

ـ إن كنت سأحملك بين أضلعي ، فلمَ الشوق . .؟

(17)

ما هو الشوق...؟

نحن فــي اشــتياق دائم ومســتمر بلا نهاية ، كالأفق البعيد . . .

ما هو الشوق ، سحر ، داء ، لعنة أم ابتلاء . .؟

ما معنى أن نشتاق لأشخاص رغم وجودهم بيننا ، ولا نشتاق لأشخاص آخرين إلا بعد أن يرحلوا عنا . .؟ ما معنى أن نشتاق للحظات التي نعيشها ونخشى أن تضحى مجرد ذكرى ، أن نشتاق للحظات التي ستزورنا يوماً أو قد لا تزورنا أبدا . .؟

زارني طيفها ليلة أمس في عتاب ، وراح يرسم صورتها على كل ما هو حولي . .

على الجدران ، على المرايا ، صفحات الكتب والوسائد . .

راح يرسم تلك العيون التي علمت الشوق كيف يصوغ لنفسه كياناً ، حتى يشتاق لها . .

أما أنا فرحت أعاند بحار الشوق الغاضبة ، التي زاد عنادي من غضبها ، فراحت تشن علي غارات من الذكريات ، التي كانت تغشاني حد الإغماء شوقاً . .

أي سحر عظيم قد جاءت به تلك العيون . .؟

وأي لعنة قد أصابتني . .؟

ـ ما الذي جرى لك ، يا عصام . .؟ كيف ما زلت تفكر بها . .!؟

ـ أمي . .

ـ لا أريد سماع أي أعذار ، ولا أريد سماع اسمها في منزلي ، من بعد هذا اليوم

ـ فقط دعيني أشرح لك . .

ـ أي شرح وأنت دائم السير وراء عواطفك ، جاهلاً تماماً ما تخبئ أسارير البشر . .؟ تلك الملعونة مجرد قاتلة وأنا . . وأنا . . وأنا . .

ـ أمي . . أمي . . أأنت بخير . .!؟

ـ آه . . عصام عليك . .

ـ ما بك يا أمي . .!؟

ـ لا شيء ، المهم أنك ، آه . .

ـ ارتاحي الآن ، دعي الحديث جانباً

ـ يجب أن تعدني ، آه . .

ـ بماذا تشعرين . .؟

ـ آه . . آه . . رأسي . .

ـ سأتصل بصلاح

* * * * * * *

ـ عليك أن تتقن عملك جيداً هذه المرة . .

ـ لكن نصيبي سيكون الضعف يا آسيا . .

ـ إن أتقنت العمل

ـ اطمئني ، سأجلب لك كل ما في الخزنة

ـ موعدنا بعد غد ، فلا تنس . .

ـ لن أنسى . .

* * * * * * *

ـ أمي . .

ـ لا ، لست أمك . .

ـ سيدي المحقق . .!!

ـ ألن تسمح لي بالدخول . .؟

ـ أ . . آسف تفضل

ـ منزل جميل . .

ـ . . . .

ـ هل يعيش معك أحد . .؟

ـ أمي . . أنا وأمي فقط

ـ وأين هي . .؟

ـ في المستشفى ، أعني قد ذهبت للمستشفى . .

ـ وما السبب . .؟

ـ لإجراء بعض الفحوصات

ـ ولِمَ لم ترافقها . .؟

ـ قد رفضت ذلك . .

ـ ألن تضيفني شيئاً . .؟

ـ آه ، بالطبع ، ماذا تحب أن تشرب . .؟

ـ بيتزا أو شطيرة بيض

ـ . . . . !!

ـ مع عصير طازج لو سمحت

أي نوع من الطلبات هذه . .؟ أيخال نفسه قد دخل مطعماً وأنا النادل الذي صار يلقي عليه قائمة طلباته . .؟

ـ عفواً سيدي ، شطيرة البيض

ـ أين العصير . .؟

ـ لم أجده ، على ما أظن قد نفد من عندنا

ـ لا مشكلة سأنتظرك وحدي دون انزعاج ، ريثما تقوم بجلبه من السوق

ـ . . . . !!

ـ صدقني لن أنزعج من الانتظار وحدي

يا له من متطفل غريب ، يقتحم منزلي ويرمي بي خارجاً ، لأجلب له السم القاتل . .!!

* * * * * * *

رحت أسير من خلفه حاملاً له زجاجة العصير . .

بينما كان يفترس شطيرة البيض بوحشية مسقطاً فتات احشائها فوق سجادة غرفتي ، وهو يعبث في أشيائي ، طابعاً بصمات بنكهة البيض . .

كتبي ، وسادتي ، مدونتي وحتى أقلامي ، جميعها صارت معطرة بعطر البيض . .

وبعد أن أنهى جولته في غرفتي ، بدأ يحضر لجولة داخل غرفة أمي . .

جولة ليلوث فيها حاجياتها النظيفة والمرتبة . .

ـ لمَ الباب مقفل . .؟

ـ أ . . أنها غرفة أمي

ـ وهل هي معتادة على فعل هذا قبل خروجها من المنزل . .؟

ـ أحياناً . . أحياناً تسهو وتقوم بإقفاله

ـ وهل . .

ـ سيدي ، ألن تشرب العصير . .؟

ـ أنا لا أشرب العصائر الطازجة

ـ ولكن . .

ـ أفضل المشروبات الغازية ، فلتعد للسوق وتجلب لي واحدة

ـ إنها موجود لدينا

ـ تباً ، أعني حسناً . .

تجرع المشروب مرة واحدة ، ليفجر قنبلة تجشؤ من الحرب العالمية الثانية ، كادت تصيبني بالغثيان ، ثم بعد ذلك رحل . .

رحل بعد أن أخذ إحدى ورود أمي . .

ليضعها في جيب سترته ويترك بدلاً منها بصمات بحبر البيض . .

لكن لمَ أقفلت باب غرفتها . .؟ ما الذي تخبئه يا ترى . .؟

هذه المرة الأولى التي تقوم بذلك . .!!

أخذني الفضول الى باب غرفتها محركاً دفته . .

فاذا بالباب يفتح ، هو غير مقفل . .!!

لمَ ادعى العكس . .؟ هل أراد اختبار ردة فعلي . .؟ هل أراد إيقاعي في شباك أمرٍ ما . .؟ أم جهل كيف يتم فتحه ، فظن إنه مقفل . .؟

وما سبب زيارته . .؟ ما الذي كان يبحث عنه . .؟ هل يعقل أن صوفيا قد أخبرته بذلك الأمر . .؟

وهل تصور أنني شريك لها في القتل . .؟

(18)

كيف نعلم أن الأوان قد فات...؟

هي عزلـة غريبـة ، لها ثلاثـة جدران صماء ، ورابعها قضبان باردة . . .

باردة كفصل الشتاء الذي يغزو سنوات حياتي . .

لم يمر بأعوام عمري إلا الشتاء ،ليصنع مني منحوتة جليد تكمن في داخلها مشاعر جليدية . .

هذه العزلة ، إن كانت جزاء لظلمي لهم ، فهي فاتورة حساب مفروغ من أمرها . .

أما إن كانت جزاء لظلمي نفسي ، فهي فاتورة حساب لا تسدد أبداً . .

لو أني تركت عزلتي ، دموعي ، هل كان سيجدي ذلك نفعاً . .؟

ولو أن والدي ترك طمعه هل كان سيغير ذلك من مصيره ومصيري . .؟

وهل ينفع الندم بعد فوات الأوان . .؟

وكيف نعلم أن الأوان قد فات . .؟

* * * * * * *

ـ هل أنتَ أكيد من هذا يا دكتور . .!؟

ـ أجل ، يا دكتور صلاح . .

لماذا وجود الحزن دوماً أكيد . .؟ بينما الفرح قد يوجد أو لا يوجد . .؟

هل اختارها الألم من بين كل البشر ، أم إنه قد اختارني . .؟

هل اختارني ليعذبني ، ليقتلني مرتين . .؟

هل قضى القدر أن أودع أمي مرتين ، أن أواريها التراب مرتين . .!؟ وهل هو راض بقضائه . .؟

ـ هل ظهرت نتيجة التحاليل يا بني . .؟

ـ لا . . لا . . قال بإنها لم تظهر بعد

ـ صلاح ما بك يا بني . .؟

ـ أنا . . أنا بخير

* * * * * * *

ـ هل توصلتم لمكان المشتبه به . .؟

ـ أجل سيدي . .

ـ هذا أمر التحفظ على جميع ممتلكات المجني عليه ، وعلينا تنفيذه . .

ـ سيدي ، وماذا بشأن اعتراف ابنته . .؟

ـ هنالك حلقة مفقودة علينا الوصول إليها ، قبل الأخذ بجدية اعترافها . .

* * * * * * *

ـ عصام . .!!

ـ . . . . !!

ـ ما الذي أتى بك الى هنا . .؟ هل تعاني من شيء . .؟

ـ أنا . . أنا أعمل هنا

ـ أجل ،لقد تذكرت ذلك

ـ . . . .

ـ تعال معي

ـ الى أين . .؟

ـ ألا تود معرفة سبب وجودي هنا . .؟

ـ . . . . !!

كعادته وكأنه يقرأ أفكاري ، ويتصفح أوراقها بصورة مريبة . .

توجهنا معاً لقسم العناية المركزة ، لنجد في إحدى غرفه رجلاً عجوزاً ينام بهدوء فوق سرير يتوشح بالبياض . .

بدا في سريره هذا ، وكأنه ينام في نعش ملوكي ، نعش أحاطت به الورود من كل جانب . .

يا لغرابة الورود تلازمنا في الصداقة والحب ، الولادة والموت . .!!

ما تلك القدرة السحرية التي تمتلكها هذه المخلوقات الرقيقة . .؟

ما تلك القدرة السحرية التي تبدد الغضب وتجعل الحب يرسخ في النفوس . .؟

لكن لِمَ توضع على القبور . .؟

هل لها القدرة على تحرير الأرواح من أوصاد أجسادها ، وجعل ذكرياتها تحيا فوق القبور ، معبرة عن الحب الذي رسخ في القلوب ولن يغادرها . .؟

ـ هذا الرجل كان يرسل رسائل تهديد بالقتل ليعقوب ، والذي كان . .

لم أعد أسمع شيئاً بعد أن أخذني زورق الذكريات الى عند يعقوب . .

الى لقائنا الأول ، الى لحظة كادت تسقط عيناه في حجره وهو يطالع رسالة بين طيات هاتفه . .

هل كان يحدثني عن الموت ، وهو يقرأ سطوراً منه . .؟

هل كان يحاول إيجاد معنى الخوف . .؟ هل أراد معرفة نتيجة دمج الخوف بالموت . .؟

وهل كان يخشى الموت . .؟

ـ هذا الرجل قد مات أو أضحى شبه ميت قبل مقتل يعقوب . .

ترجلت من زورق الذكريات ، بعد أن همس المحقق تلك العبارة في أذني . .

هل يعني بأن هذا الرجل قد رمي خارج دوائر الشك والاتهام . .؟

هل يعني أن صوفيا عادت لتكون المتهمة الوحيدة ، وأنا الشريك الذي لم يكشف أمره بعد . .؟

لو كانت لهذا الرجل فرصة ثانية في الحياة هل سيضحى قاتل يعقوب ، أم سيعود ليختار مرة أخرى نومته الأبدية . .؟

(19)

هل أنت بخير...؟

الكل علـى موعد معه ، الـكل يترقب قدومـه ، والـكل يتملكـه الخوف من أن يجلب لهم الحزن ، ناسـياً من خلفه الفرح . . .

ما هو المستقبل . .؟

هو ذلك المسافر الذي لا ينجلي خوفنا منه ، إلا بعد أن يحطّ رحاله . .

ما هو المجهول . .؟

هو ذلك المسافر الذي لا ينجلي خوفنا منه ، إلا بعد أن تطال أيدينا أمتعته المعبأة بالضحكات والدموع . .

ولِمَ الخوف . .؟

لأننا مجبرون على أن نشرع الأبواب دوماً ، لنستقبل كل ما نتمنى ولا نتمنى لقاءه ، حتى ننال نصيبنا من الأقدار . .؟

ـ عصام . . عصام . . هل أنت بخير . .؟

ـ ما العمل الآن . .؟

ـ سأعرضها على أفضل الأطباء ، سأسافر بها الى أبعد البلدان . .

ـ ولكن ، صلاح أنا لا أملك الـ . .

ـ أنا سأتدبر كل شيء

ـ كيف . .؟

ـ سأتدبر كل شيء . .

مهما تدبرنا لن ينفع التدبير ، إذا أشعل الموت نيرانه ، إذا جاء يطلب القرابين . .

يطلب مخلوقات لم يقدر لها الخلود ، وكل خلية فيها تتناقص وتتضاءل ثم تموت وتختفي ليختفي معها الأحلام ، الأمنيات ، المستقبل والمجهول . .

تختفي ليكون كل شيء بعدها مجرد ماضٍ ، مجرد ذكريات . .

لكن ما دمنا نحن القرابين ، وختام حياتنا سيكون بلقائه ، لـِمَ يزورنا بآلف قناع وقناع . .؟

لـِمَ يمارس معنا شتى أنواع العذاب . .؟

ينهي حياة وسط البحار ، وحياة من على سفوح الجبال ، وأخرى بين لهيب النار ، أو على فراش المرض . .

لـِمَ لا نموت جميعنا ميتة واحدة . .؟

وهل إن متنا كذلك ، هل يبقى للمجهول رهبة ، أم ستطمئن النفوس بعد أن تتيقن من نهايتها . .؟

ولـِمَ عليها أن تعيش بقلق مستمر . .؟ وهل قلقها أمر مشروع ، هل هو منصف ، أم إنها مرغمة على أن تجرب الموت البطئ . .؟

ربما يخافنا الموت . .؟

لذلك نجده دائم التنكر والغموض ، حين يغدر بنا . .؟

أو ربما هي حنكة منه ، وقدرة عظيمة في مكر الحروب . .؟

لا أدري لـِمَ يختار الغموض هذا المستقبل ، هذا المجهول ، هذا الموت . .؟ وهل هو خيار حكيم ، شجاع أم جبان . .؟

* * * * * * *

ـ هل أنهيت جميع الاجراءات . .؟

ـ أجل ، حبيبي . .

ـ هذا جيد

ـ صلاح . .

ـ نعم

ـ ما بك ، أراك اليوم دائم الشرود . .؟

ـ بعض التعب

ـ متى ستسافر . .؟

ـ بعد ثلاثة أسابيع

ـ وكيف سنتواصل

ـ سأرسل لك العنوان ورقم هاتفي الجديد ، بعد أن أستقر

ـ حسناً . .

* * * * * * *

ـ لن أسافر

ـ أمي ، هي مجرد فحوصات . .

ـ لن أسافر

ـ ولكن لمَ كل هذا العناد والرفض . .؟

ـ أفضل الموت هنا

ـ الموت . .!!

ـ أنا أدرك أن لدي موعداً مع الموت ، وإن قرر أن يزورني قريباً فليزورني بهدوء . .

ـ أمي ، لا تكوني متشائمة قد . .

ـ قد عشت من العمر ما يكفيني ، ورأيت فيه من العذاب ما يجعلني أتحمل سكرات الموت وأتقبلها بطيب خاطر ونفس راضية . .

الموت يا بني أمر محتوم ، بوابة تنقلنا من حياة مؤقتة الى أخرى أبدية ، الموت هو السلمة الأخيرة التي يجب أن تعتليها أقدام الجميع . .

وجدت نفسي ضعيفاً أمام هذه الإنسان العظيمة ، التي على قدر ما كسرها الدهر ولم يبقِ فيها شيئاً ليكسر ، إلا أنها ما زالت صامدة وتقف بثبات . .

احياناً يخلق الألم اشخاصاً أقوياء لا يكسرون رغم كسرهم ، وكأن كثرة الألم مضاد للألم ، ترياق للعذاب ترياق للخوف ، ترياق حتى للموت نفسه . .

ما معنى الموت لمن لا يخشى الموت ، لمن قد مات آلاف المرات . .؟

هل هو اللمسة الأخيرة في لوحة حياته ، أم هو الحضن الدافئ الذي تكمن فيه راحته الأبدية . .؟ وهل هنالك راحة ، ونحن نجهل ما يوجد على الضفة الأخرى من الحياة . .؟

ونحن يتركنا الموت عند بوابة حياة أبدية ليهرب قبل أن يواجه معنا المصير المجهول . .

أجل ، هو مجهول ، فلم يسبق أن رحل شخص ثم عاد ليخبرنا . .

الكل يرحل ولا يعود ، الكل يلج تلك البوابة تاركاً لنا التساؤلات ، بماذا شعر . .؟ ما الذي رآه في الثواني الأخيرة من الحياة . .؟ وهل بكت روحه لبكائنا . .؟

هل الأرواح تبكي ، تذرف الدمع الدافئ كحضن أمي ، والمالح كمياه البحر . .؟

ـ آه . . آه . . رأسي

ـ أمي . . أمي . .!!

ـ الألم ، قد عاد ثانية . .

ـ أين ذلك الدواء الذي جلبه صلاح . .؟

ـ آه . . إنه . . إنه . . لا أذكر أين ، ربما هو في دولابي . .

ـ سأبحث عنه ، سأجده . .

ـ آه . . آه . . أوجدت الدواء يا بني . .؟

أجل وجدته ، ويا ليتني لم أفعل ذلك . .

كيف لها أن تحيا مع هذا الشيء . .!؟ وكيف ما زال دولابها حياً متقبلاً فكرة احتضانه . .!؟

وكيف . . وكيف . . وكيف . .

(20)

هل أنت مصر على قرارك...؟

حين يتمزق جدار الزمن ، تتحطم اللحظات في داخلنا ، ليخرج من أعماقها أشخاص لا يشبهون ذواتنا بالمرة . . .

أشخاص ضائعون ، مخدوعون ، أضعف من أن يديروا دفة الأحداث . .

ويهربون دوماً بنهاية سريعة . .

أغرق النور المكان ، بعد أن أطلت شمسها من خلف ستارة كبيرة . .

لتخبرني بجمال هذا الصباح الذي لا يفوقها جمالاً . .

ـ أنا آسف ، يا صوفيا . .

ـ . . . .

ـ فقد رفضت سماعك ، وتخليت عنك بسهولة

ـ . . . .

ـ لكن ما زالت هناك فرصة لانتشالك من الضياع والعذاب . .

ـ أنا التي يجب أن . .

ـ أنتِ يجب أن تعشقي الحياة ، وتجربي طعم السعادة

ـ أنا . .

لم تنهِ حديثها لظهور يعقوب فجأة ، والذي بدأ يجرها الى الموت ، بينما كنت أجرها الى الحياة . .

محاولاً إنقاذ تلك العيون التي بدأت تغرق بالدموع ، بالصمت ، بالحزن العميق . .

ـ لن أترككِ . .

ـ عصام . .

ـ لن أتركَكِ يا صوفيا . .

ـ عصام . . عصام . . استيقظ يا بني

ـ أمي . .!!

ـ أما زلت تحلم بها . .؟

* * * * * * *

ـ ما المضحك فيما قلت . .؟

ـ أضحك على الدعابة ، ألم تكن كذلك . .؟

ـ لا ، هي ليست كذلك

ـ حقاً ، ومن هو سعيد الحظ . .؟

ـ صلاح ، كف عن سخريتك ، ولتأخذ حديثي على محمل الجد

ـ . . . .

ـ كنت أنا ، هذه هي الحقيقة . .

ـ الحقيقة هي أنكَ مجرد مجنون يحاول رمي نفسه في التهلكة

ـ ستسافر هذا الأسبوع وتصحبها معك

ـ وهل تظن أني قادر على إقناعها بالسفر دونك . .؟

ـ أنا أكيد من أنكَ قادر على ذلك . .

ـ عصام ، هل أنت مصر على قرارك . .؟

ـ ولن يثنيني عنه شيئاً

ـ هذا جنون . .

هو ليس جنوناً ، إنما هو حب ، حب صادق . .

هنالك أشخاص في حياتنا يضحون لأجلنا بصحتهم ، راحتهم ، أموالهم ، وإن تطلب الأمر أن يضحوا بأرواحهم لن يترددوا عن فعل ذلك . .

لأنهم ببساطة يحبون بصدق ، ومن يحب بصدق يضحي بسخاء . .

لذا علي أن أضحي بسخاء ، لأني أحببتهم بصدق . .

* * * * * * *

الوداع وجع أكبر من أن يقاس ، بساعة ، يوم ، سنين . .

ودعت أمي ، وأنا أخاف الدمع أن يشي بي ، فيعلمها بالوداع الأخير للقائنا الأخير . .

عند وداعها . .

حاولت أن لا تسقط جدران كياني المحطم وتتبعثر حجارته . .

حاولت خنق دموعي ، كتم أنفاسها ، وقطع طريق الحرية عليها . .

حاولت أخذ جرعة كبيرة من عطر أمي ، أحتفظ بها حتى آخر أنفاسي . .

حاولت جعل صدري يتشبع بحنانها ، حين لفتني بذراعيها ، حين شعرت وكأنها المرة الأولى التي تضمني فيها . .

آخر مرة تكون أكثر ألماً ، أكثر وجعاً ، وأكثر حناناً . .

نحن مخلوقات لا تشعر بوجود من حولها ، إلا بعد أن يختفوا ، إلا بعد أن تختفي النظرة ، الكلمة وصدى الضحكات . .

الآن ألج قاعة كئيبة تلقب بقاعة المحكمة . .

يجلس في داخلها مجموعة كراسٍ ، وهي تحمل فوق ظهورها أناس تجمعهم صلة وثيقة ، ألا وهي البحث عن العدالة . .

وكل واحد من بينهم يفسر معنى العدالة على حسب مصالحه . .

لم أتمكن من معرفة إلا شخصاً واحداً من الباحثين ، وهي أرملة يعقوب . .

تجلس بوقار ، بحزن مصطنع وهي تتوشح السواد . .

أما القضاة بوجوههم العابسة ، بدأوا يمسكون خيوط اللعبة بإحكام ، وهم يبقون على الهدوء في كل أرجاء المكان . .

وفي تلك الزاوية ، خلف حاجز أصم جلست صوفيا ، وهي تشغل نفسها بالشرود ، إذ أنها كانت تجالس الحضور بجسدها ، أما روحها فقد اتخذت سبيلاً للهروب . .

لتترك عينيّ معلقتين بذلك الحاجز الأصم ، بذلك الوجه الجميل ، وبتلك العيون الشاردة ، بينما جسدي كان مشغولاً في البحث عن كرسي له . .

بدأت تسرد الأحداث ، وتكشف الحقائق ، وتجمع الشهادات والأدلة . .

ليبقى بعد كل ذلك شيء غامض ، واعتراف صوفيا المدون كان يزيد من الغموض غموضاً . .

فتوجه أحد القضاة بسؤاله لصوفيا ، بصوت صار يسمع له صدى بين أركان القاعة . .

ـ هل تعترفين بأنك القاتلة . .؟

ـ . . . .

لم ينل إلا الصمت ، فأعاد سؤاله بعد ذلك بغضب شديد ، وكأنه أعاده آلاف المرات من قبل وليس لمرة واحدة . .

ـ هل تعترفين بأنك القاتلة . .؟

ـ أنا . . أنا . . القاتل

جوابي غزا الحاضرين ، كضوضاء تقتات على السكون ، لتجعل عيون الجميع تتعلق بي ، بينما كانت عيناي تتعلقان بشخص واحد منهم . .

جوابي غزا القاعة كالرعب ، ليزعزع بنيانها ويدك جدرانها فلا ترد صوتي . .

وفي وسط كل ذلك وجدت نفسي قبل أن تطرح علي أسئلة حيرتهم ، أقف أمام القضاة وما تزال عيناي معلقتين بصوفيا . .

ـ أنا . . أنا عصام أمين ، أنا هو القاتل وهذا دليل إدانتي . .

(21)

لمَ فعلت ذلك...؟

اعتــدت العيش مع الفقــر رغم كرهي لــه ، لم أجد منه مفراً ، ولا أجيد حتى الهرب . . .

تعلمت منه حرفاً كثيرة ، السرقة ، النصب ، الخداع ، وتجارة البشر . .

أتاجر بالبشر وهم موتى ، ويتاجرون بي وبأمثالي وهم أحياء . .

يتاجر بواقعنا ، أحلامنا ، أجسادنا ، وأرواحنا ونحن نتنفس . .

أنا رحيم بتلك الجثث ، جداً رحيم . .

فلم أتركها للدود يفترسها ، إنما حولتها لأكثر ما كانت تحب في الحياة ، ألا وهي النقود . .

نقود لا أجيد صرفها إلا على اللذات أو إن تلك النقود الملعونة لا يمكن صرفها إلا على ذلك الأمر . .

بلمستي السحرية أحول الجثث الى نقود ، والنقود الى لذات ، واللذات لا أذكر شيئاً منها في صباح اليوم التالي . .

بلمستي تتحول الجثث الى نسيان ، وإن تركتها للدود ستتحول الى نسيان ، وفي كلتا الحالتين سيواري جثثنا النسيان . .

أحياناً يحاول أن ينطق ضميري الأخرس ، طالباً مني التوبة ، البحث عن فرصة ثانية في حياتي . . عن التفكير ، الذي يتوهني وسط دوامات التفكير . .

والذي ينتهي بإسكات ضميري ، حتى أعود لما أنا عليه

فلا حاجة لي بفرص ثانية ، ولا أظن أني أجيد اغتنام الفرص . .

أنا راض عن نفسي ، راض أن أكون جمال ، عفواً التاجر جمال . .

جمال تاجر الجثث . .

ـ أنا لم أقتل أحداً . .

ـ دع هذا الكأس الملعون جانباً ، وأخبرني بالحقيقة . .

ـ قد أخبرتك بالحقيقة ، أنا لم أقتل أحداً

ـ يبدو أنك قد سكرت . .

ـ أنا صاحٍ ، صاحٍ جداً

ـ . . . .!!

ـ تلك الليلة حين خرجت من منزلي لأنفذ ما طلبته مني ، صادفني أحدهم وتشاجرت معه ، لننتهي نحن الأثنان في قسم الشرطة . .

ـ وبعد . .!!

ـ وبعد ساعات تم الأفراج عني ، فتوجهت لمنزلك ، لكن وجدت الشرطة تطوق المكان ، كنت قد وصلت متأخراً ، وقد قتل حينها زوجك . .

ـ ولكن ، لِمَ لم تخبرني بكل هذا من قبل . .؟

ـ حاولت ، لكن لم تعطني فرصة ، ثم ناولتني نقوداً كثيرة دون تعب

ـ فأخذتها وفرحت بها . .

ـ مؤكد ، أي شخص غيري كان ليفعل الشيء ذاته ، فمن لا يحب أن يمتلك أموالاً دون تعب

ـ والآن ، أكيد قد بذرتها بالكامل . .

ـ طبعاً لا ، قد صنعت حصالة وخبأت لك النقود في داخلها

ـ أتسخر مني . .؟

ـ أسئلتك هي من تثير السخرية ، فشخص مثلي مؤكد قد قضى عليها من الليلة الاولى . .

ـ يعني سرقتني وضحكت علي ، خدعتني يا جمال ، لقد خدعتني . .

ـ لمَ تنظرين للنصف الفارغ من الكأس . .؟

ـ أي كأس ، إيها المغفل . .؟

ـ أنتِ الآن بريئة ، لا علاقة لك بمقتله

ـ أتعلم رغم غبائك ، لكنك محق في هذا الأمر

ـ . . . .

ـ هل ما زلت تخفي عني شيئاً آخر . .؟

ـ مثل ماذا . .؟

ـ أي شيء ، قد قمت به دون علمي . .

ـ لا ، لم أقم بأي شيء . .

لم أقم إلا بشيء واحد ، وهو إني تاجرت بجثة ذلك السمين ، وجعلتكم تواروا جثة امرأة بدلاً منه . .

* * * * * * *

ـ لَمَ فعلت ذلك . .؟

ـ . . . .

ـ أتحاول أن تضحي لأجلي . .!؟

ـ . . . .

ـ أن كنت تظن بأني قاتلة ، فأنت واهم . .

ـ . . . .

ـ أنتَ تعلم بأني قد وضعت حقائبي في السيارة وفكرت بالهروب معك ، لأسبب له الازعاج فقط . .

ـ . . . .

ـ لم أكن أنوي قتله أو توريطك بشيء

ـ إذاً ، لَمَ تركتني قربَ السيارة ورجعتِ الى الداخل . .؟

ـ لأجلب مفاتيح السيارة ، إذ لم أكن أستقل سيارته

ـ ما دامت هذه هي الحقيقة ، لَمَ ادعيتي قتله . .؟

ـ . . . .

ـ أكنت تحاولين الهروب الى الموت . .؟

ـ لم أجربه من قبل ، حتى أخاف أو أخشى الهروب إليه . .

ـ . . . .!!

ـ ربما في الموت راحة لم أشعر بها من قبل . .؟

ـ . . . .

ـ قد جئت اليوم ، لأخبرك بأمر واحد فقط

ـ وهو . .؟

ـ إن كنت أنتَ القاتل ، فلن أسامحك طوال حياتي . .

ـ . . . .!!

لن أسامح ، أنا لست أهلاً لذلك . .

أنا أحمل يعقوب بدمي ، ويعقوب لا يسامح . .

يعقوب الذي بدأت أتحول لنسخة عنه ، توأمه الذي فرقتهم ساعات ، وأيام ، وسنين من الولادة . .

لكن لمَ يضحي عصام لأجلي ، وهو الذي تأكد من عدم حبي له . .!؟

وهل حقاً ، هو القاتل . .؟

لا . . لا . . أظن ذلك . .

ولكن . .

أجل هو القاتل ، قد كان يحمل خاتم أبي . .؟

أبي . .!!

أجل ، إنه أبي . .

اجتزت عتبات السجن ، وكأني اجتزت عتبات الجحيم . .

جحيم صغير قذف بي الى أعماق الجحيم الكبير ، والذي لم يعد لي فيه سوى بيت يتقوقع على نفسه

وقبر لا حياة فيه . .

قبر نذرت أن أهدي له الورود كل يوم . .

(22)

ما الحقيقة...؟

مرة أخرى يحدثونني عن سماحهم ،عن
عفوهم ، مرة بالقبول ومرة بالرفض . . .

لم تسامحني ، لم تدرك معنى حبي لها ، حتى هذه اللحظة . .

لم تدرك أن تلك الدمية البشعة ، التي كانت تغيظ الناس بها ، قد أحبتها رغم العذاب الذي عانته من رميها في كل مرة أو يمل منها . .

لم تدرك أن الحب قد جعلني أتشبث بيد الموت ، أرمي نفسي في أحضان التهلكة لأعتلي خشبة هذا المسرح . .

مسرح الجريمة بأبوابه الخشبية الأربعة ، وستائر الستان التي أزيحت لتعلن عن بدأ الحكاية . .

حكاية نملة تاهت بين نقوش السجادة التي لوثها يعقوب بدمائه . .

يعقوب هو أحد الأبطال الثانويين الذي يقتل من المشهد الأول ، وذلك لأنه كان ممثلاً فاشلاً ،لا يقدر أن يقوم إلا بهذا الدور . .

أو بالأحرى هو لا يصلح إلا لهذا الدور . .

تاهت النملة ، وقتل يعقوب ، ودخلت الآن بطلة جديدة . .

بطلة تقطعت الأيدي من شدة التصفيق لها ، فهي نجمة ساطعة في مجال التمثيل . .

تتقن تمثيل دور العشق ببراعة ، كما تتقن دور الخداع ببراعة أكثر . .

إنها النجمة صوفيا ، فلتصفقوا لها ، ولتقطعوا أيديكم من شدة التصفيق . .

بعد انتهاء التصفيق ، تلتها بطلة أخرى . .

هي أرملة يعقوب ، والتي ستكون طوال العرض منهمكة بالتشغيل والاطفاء الذاتي لمشاعرها . .

فقط إيماءات جسدية بلا حوارات ، فسحر جمالها كان كافياً ، ليسمح لها المخرج أن تعتلي خشبة هذا المسرح . .

وهنا يقف البطل . .

أجل ، هو يقف هنا . .

أجل ، إنه أنا ، أنا هو البطل . .

أنا القاتل الذي يحير المحققين ، ممن ملكوا عقولاً ولم يملكوا . .

أنا القاتل الذي يظهر في المشهد الأخير من هذه المسرحية البائسة ، ورغم دوري البسيط إلا إني أنا البطل . .

البطل الأساسي ، ولا يصلح لي إلا دور البطولة . .

أنا البطل المنفرد بالسذاجة ، والغباء ، والحب الأعمى ، والنهاية الحزينة . .

أنا بطل هذه المسرحية ، أنا عصام . .

ـ عصام . . عصام . .

ـ نعم سيدي المحقق . .

ـ فلتمثل لنا كيف قمت بقتل المجني عليه ، واشرح ذلك بالتفصيل . .

ـ حاضر سيدي

ـ . . . .

ـ ليلتها دخلت من هذا الباب ، والذي يصل الى المطبخ بعد أن تناولت سكيناً منه . .

ـ جيد ، وبعد . .

ـ كنت حينها أنوي سرقة خزنة يعقوب

ـ بسكين . .!!

ـ فكرت أن أقتله بها ، بعد أن يفتح لي الخزنة

ـ ولِمَ لم تقم بذلك ، أعني لِمَ لم تجعله يفتح لك الخزنة ومن ثم تقتله . .؟

ـ رفض وبدأ يقاومني ، فاضطررت لقتله ، بعد أن شعرت بأن شخصاً ما ، يحاول دخول المكتب

ـ ثم . .

ـ ثم أخذت الخاتم من إصبعه وخرجت بسرعة من حيث دخلت

ـ وهل خططت لكل هذا مسبقاً

ـ لا . .

ـ حسناً ، وهل . .

ـ وما رأيك بهذا . .؟

ـ . . . .!!

فاجأني حين قاطع المحقق رائد زميله الذي كان يقوم باستجوابي ، وهو يشير الى اللوحة التي وضعت على باب غرفة يعقوب ، منتظراً بعد ذلك أن يسمع جوابي . .

تلك الجارية كانت مقطوعة العنق ، قد ذبحت نفسها وفضلت الموت بعد سيدها . .

لكني لم ألاحظ ذلك من قبل ، ولا أملك أي تفسير له ، وأي تفسير مني في هذه اللحظة قد يجعل من السيناريو الذي صنعته أفشل سيناريو في تاريخ الفن ، لأفشل مسرحية . .

بعد أن فطن أن السبل قد تقطعت بي ، وإني لا أملك تفسيراً ، بدأ يكمل السيناريو الفاشل عني مع أضافة بعض التعديلات . .

ـ دخول القاتل من هذا الباب ربما يكون اجابة صحيحة ،لكنه لم يفر بسرعة ، إنما راح يختبئ عند هذه اللوحة قاطعاً رقبتها بسكينه والتي كان يخبؤها خلف ظهره على ما يبدو . .

ثم عاد ليطعن المجني عليه مرة أخرى ، حتى يتأكد من إنه قد فارق الحياة . .

سؤالي هو ، لماذا اختبأ ، ولِمَ لم يفر بسرعة كما أدعيت ذلك ، هل تستطيع اجابتي . .؟

ـ أجبتك بما أعلم ، ولا أستطيع أجابتك بما لا أعلم . .

ـ أنتَ تحاول اخفاء شيء ما . .

ـ وأنتَ تحاول اضاعة وقتك بشيء ما ، ها . . ها . .

تبعت عبارتي بضحكات مصطنعة ، تخفي وراءها صرحاً من الخوف . .

فأثار ذلك جنونه وراح يشدني من قميصي محاولاً استفزازي ، وبعد أن عجز عن ذلك صار ينقض على رقبتي بكلتا يديه . .

ـ قل الحقيقة . .

ـ رائد ، دعه يا رجل سيموت بين يديك

ـ لن أدعه ، حتى يقولها ، هيا قلها . . قلها . .

ـ الحـ . . الحـ . . الحقيقـ . .

ـ دعه ليتكلم . .

بعد أن حرر رقبتي ذلك الثور ، بدأت أسعل وأسعل ،لكن كم هو صعب ذلك الشعور ، الشعور بالاختناق وبدأ انتزاع الروح . .

ـ هيا تكلم ، ما الحقيقة . .؟

ـ الـ . . الـ . . الحقيقة ، أنا هو القاتل . .

(23)

ما لون أخر حكاياتك...؟

حكايات والدي دوماً كانت لها نهايات بيضــاء ، جــاء الأميــر علــى حصانه الأبيــض ، غطــى المرج ثلــج أبيض ، ارتــدت العــروس فســتانها الأبيض ، صنعــت الجنيــة طوقاً من الياســمين الأبيض ، انتهت الحرب لتحلق حمائم الســلام البيضاء ، مــات البطل ووارى جسده قماش أبيض ، وآخر صفحة في الحكايات تكون مجــردة من الحروف وناصعة البياض . . .

ـ أبي ، أتحب اللون الابيض . .؟

ـ أجل يا بنيتي ، فهو يبعث الطمأنينة في النفس ، سيأتي يوم

تكونين فيه عروساً بفستان أبيض وأكون لحظتها قد اطمأنيت عليك . .

الآن ألبس البياض لا لعرس ، إنما لموعد يا أبي مع المجهول . .

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير دكتور

ـ سنجري لك بعض الفحوصات استعداداً للقيام بالعملية ، هل أنتِ مستعدة لذلك . .؟

ـ أجل مستعدة . .

كنت مستعدة طوال حياتي أو مجبرة على الاستعداد ، مستعدة لتلقي جميع الصدمات ، مستعدة لتقبل عطايا الأقدار ، ومستعدة للقاء المجهول . .

ـ أبي هذا ما كنت تخبرني عنه

ـ فستان عرس أبيض

ـ لكن ، أمين لا يملك حصاناً أبيض

ـ يملك قلباً أبيض

كان له قلب أبيض ، قلب لم يستطع أن يعيش ببياضه طويلاً بين الوحوش . .

ـ جيد تستطيعين أن ترتاحي الآن ، قد أكملنا الفحوصات

ـ أين صلاح . .؟

ـ لم يحضر بعد

ـ لماذا تأخر . .؟

ـ لا أعلم ، سأحاول الاتصال به . .

* * * * * * *

لمَ هذا اليوم بالتحديد . .؟

لا . . لا يمكن . .

كف عن التشاؤم يا صلاح ، ستنجو ، ستنجح العملية حتماً ، وحتماً ستحتفلان معاً بعيد مولدك . .

يجب أن نحتفل اليوم معاً ، نطفئ الشموع معاً ، وتهديني بعد ذلك أمنية . .

أمنية جميلة مرفقة بكلمة (بني) . .

ـ نعم

ـ . . . .

ـ سآتي حالاً ، لن أتأخر

ـ . . . .

ـ الى اللقاء دكتور

أنظر لنفسك ، أهذا أنتَ الذي في المرآة . .؟

أبهذا الوجه المرعوب سترفع من عزيمتها أم ستقتلها . .؟

لن أقتلها ، لن أحرم نفسي من عطرها . .

حين ضمتني في الجنازة ، تنفست منها عطر أمي ، ذلك العطر الذي يهتدي به الرضع لأحضان أمهاتهم . .

ومن يومها بدأ تعلقي بها ، وبدأت حكايتي بالسعي وراء ذلك العطر . .

عطر أمي ، التي رحلت يوم مولدي . .

* * * * * * *

أنهيت جميع حكاياتك يا أبي بالأبيض ، إلا حكايتك معي أنهيتها بالأحمر . .

انهيتها بزهرية تضم بين أحضانها ثلاث ورود حمراء ذابلة . .

ورود حمراء كالتي كنت تضعها على قبر لا أفقه الاسم المنقوش على شاهده ، ورود حمراء كالتي صرت أضعها أنا على القبر ذاته بعد أن فقهت ما قد نقش عليه . .

ـ أمين ، ما بك . .؟

ـ لا شيء ، لا شيء . .

ـ كيف لا شيء ، وأنت قد صرت كثير القلق هذه الأيام . .؟

ـ أنا . . أنا . .

أيضا يا أبي انتهت حكايتي مع أمين ، بعد تلك الليلة نهاية حمراء اللون . .

ـ صباح الخير

ـ صلاح ، لمَ تأخرت يا بني . .؟

ـ أنا آسف ، كنت مشغولاً

ـ كيف تنشغل عن أمك في هذا اليوم . .!؟

ـ . . . . !!

ـ ما بك يا بني . .؟

ـ أنشغل عن العالم ، عن الكون بأسره ولا أنشغل عنك يا . . يا . .

ـ قلها يا بني ، فأنا كنت أسمعها طوال الأعوام التي مرت ، وأنت ترددها بقلبك فقط

ـ أمي ، أمي . .

ـ لمَ هذه الدموع الآن . .؟

ـ . . . .

ـ هل ستقيم حفلة اليوم . .؟

ـ سأقيم لك أجمل حفل في الوجود

ـ لا . . لا أعني لي

ـ إذاً ، لمن . .!؟

ـ اليوم هو عيد ميلادك ، وسنحتفل معاً ، أليس كذلك . .؟

ـ أجل . . أجل . .

أجل ، كانت نهاية حكايتي مع شقيقتي هي الأخرى لونها أحمر ، بعد أن رسمت الأقدار لوحة أحزان فوق وجهها البرئ ، ولونتها بلون الدم . .

ـ دكتور صلاح ، يحتاجونك في غرفة العمليات

ـ حسناً . .

ـ متى تبدأ العملية يا بني . .؟

ـ بعد ساعة من الآن

ـ . . . .

ـ سأعود اليك بسرعة . .

بسرعة مرت الأحداث ودفن أمين بجنازة سريعة ، تكاد الأقدام تهرول فيها لتدفنه لتزج به لحضن قبره حتى تنصرف بعد ذلك لأشغالها . .

سريعاً أغلقت القضية ، أغلقت ملفاتها وقيدت ضد مجهول . .

كان مجهولاً ، لا يعرفه أحد ، إلا أنا . .

أنا التي خشيت على صغيري من بطشه . .

أنا التي حبست دموعي وآهاتي وخبّأت الأحقاد . .

أنا التي لم أهمس بإسمه يوماً ، لم أهمس بكل ما قد جرى لي . .

- اهربي . . اهربي يا عزيزتي وخبئي أبننا . .

- أمين . . أمين . .

هربت يا أمين . .

هربت . . وهربت . . وهربت . .

حتى وجدت نفسي قد هربت إليه . .

رأيته ، عرفته ، لم أته عنه ، لم أته عن ذلك المعلق على الجدار ، بصورته البشعة . .

* * * * * * *

صورة أبي ، ورسالة تهديد ووعيد ، وخاتم ذو حجر فيروزي . .

كل ذلك قد خبأه دولاب خشبي ، ببابين صغيرين . .

يا له من دولاب جبار . .!!

أرفع له القبعة تقديراً لطاقته العجيبة في التحمل . .

وأرفع القبعة لأمٍ عاشت أعوامها التي مضت ، وهي تخفي حزنها ، ألمها ، سرها عنيً . .

* * * * * * *

دقت نواقيس الخطر ، حين أطلق ثعابينه لتحوم حول ابني . .

كان علي أن أقطع رؤوس تلك الأفاعي . .

كان علي أن أقتل كبيرهم ، زعيمهم ، وأنهي حكايتي مع الطاغوت نهاية حمراء . .

بعد أن تأكدت من أن عصام لن يذهب للحفل ، فتحت دولاب أسراري ، فتحت صندوق أسراري . .

صندوق يخبئ صورة ، ورسالة ، ومكان خالٍ . .

مكان يحتاج لخاتم فيروزي . .

لا ، لا يحتاج . .

أعدت الصندوق ، غلقت الباب ، طردت الوساوس ، وعدت

لماكنة الخياطة أزاول عملي . .

الباب ظل يناديني ، الصندوق يناديني ، المكان الخالي ظل أيضا يناديني . .

ـ أنا أحدثك ، هل تسمعيني . .؟

ـ صلاح . .!!

ـ بماذا كنت تفكرين . .؟

ـ لا ، لا شيء مهم

ـ سنجري لك العملية بعد قليل . .

بعد قليل قررت أن أجيب نداء المكان الخالي ، أن أنتقم ، أن أجلب له خاتم زوجي . .

بلا أفكار بلا حسابات ، كالمجنونة رحت أحشر نفسي بين الجموع ، بين الخدم ، حتى وجدت نفسي داخل المطبخ . .

فأخذت سكيناً ، قبل أن أختبئ داخل دولاب ، بعد أن شعرت بقدوم شخص ما . .

شخص بدأت خطواته تقترب ، وتقترب لينزل بثلاث طرقات على باب الدولاب . .

ثم خرجت بعد أن ابتعدت خطواته واختفت . .

خرجت وأنا أسأل المكان الخالي ، الى أين ستكون وجهتي ، من يدلني ، الى أين . .؟

ـ الى أين . .؟

ـ سنذهب الآن لنجري لك العملية ، هل أنت مستعدة . .؟

ـ أ . . أجل

أجل إنه هو . .

هو يا أبي ، هو يا أمين ، هو يا عصام ، هو يا أيها المكان الخالي . .

إنه هو ، يقف خلفي ، يناديني لجلب القهوة ، ظناً منه إنني واحدة من الخدم . .

تبعته ، دخلت وراءه المكتب ، لأسدد له طعنة ، الطعنة التي طالما حلمت بها وتمنيت أن أشفي بها غليلي . .

لكنه فاجأني باستدارة مباغتة ، وصار يمسك بيدي . .

ـ من أنتِ . .!؟

ـ أنا التي ستأخذ روحك

ـ من أرسلك لقتلي . .؟

ـ أمين

ـ أمين ، من أمين . .!؟

ـ أمين الذي قتلته قبل ثلاثين عاماً ، أمين الذي وثق بك ، أمين الذي ورطته بتجارتك النجسة ، أمين . .

ـ أمين ذلك الغبي ، الذي سأقتلك مثلما قتلته . .

انقض علي محاولاً كتم أنفاسي ، بينما كنت أحاول الوصول الى قبضة السكين التي هربت من يدي . .

أحاول التقاطها ، وأحاول التقاط أنفاسي . .

أنفاسي التي كانت تتقطع . .

وبانقطاع الأنوار ، انقطعت أنفاسه . .

بعدها لملمت نفسي ، وصرت أهرب ، وأهرب . .

حتى أملأ ذاك المكان الخالي ، بخاتمه الفيروزي . .

بعدها دارت الدنيا من حولي ، ودرت معها ، حتى وجدت نفسي على سرير المرضى . .

ـ صلاح . .

ـ نعم ، يا أمي . .

ـ أتعلم ، لو كان لدي فرصة أخرى ، فسأختار ذات اللون لذات النهاية

ـ أي لون ، لأي نهاية . .؟

ـ ما لون آخر حكاياتك . .؟

ـ أتعنين مثلاً ، مثلاً . .

ـ المريضة قد استجابات للمخدر ، فهل نبدأ دكتور . .؟

ـ أمي . . أمي . .

* * * * * * *

أجل هي أمي . .

هي من بعت روحي للموت ، لأشتري لها بالثمن حياة جديدة . .

هي التي انتقمت لنا يا أبي . .

تلك الرقيقة انتقمت ، في الوقت الذي كنت أنا لا أشغل نفسي برحيلك . .

تلك الرقيقة لم تنسك يوماً ، في الوقت الذي كنت أنا لا أذكرك ابداً . .

تلك الرقيقة لم تطوِ صفحة حياتك الأخيرة ، في الوقت الذي كنت أنا لم اقرأ حرفاً من كتابك . .

تلك الرقيقة عذبت روحها لتجد طريق الحرية لروحك المغدورة ، في الوقت الذي كنت أنا أعذب روحي وروحها وأرواح كل من حولي . .

تلك الرقيقة انتقمت ،لتكمل صياغة صندوق ذكرياتكم المرصع بصورة ورسالة وخاتم فيروزي . .

(24)

ما الموت البطيء....؟

حكاياتـــي لا لون لهـــا ، فحياتي ما هي إلا لوحة شفافة ، قد جردت نفسها من جميع الألوان ، لا لبســـاطتها ، نقاوتها ، طهرها ، إنما لمقت ألوانها لي . . .

ـ دكتور صلاح ، هل أنت بخير . .؟

ـ أجل ، أجل دكتور . .

ـ هل نبدأ . .؟

ـ أجل . .

* * * * * * *

ـ من أنتِ وكيف دخلتِ الى هنا . .!؟

ـ . . . .!!

ـ أين صلاح . .؟ أين ذلك الخائن . .؟

ـ . . . .!!

ـ صلاح ، صلاح كيف تخونني يا . .

ـ . . . .!!

ـ من أنتما . .؟ وأين صلاح . .؟

* * * * * * *

ـ النبض إنه . .

ـ . . . .!!

ـ المريضة قد . . قد . .

* * * * * * *

ـ قد نجت ، نجحت عمليتها . .

ـ حقاً ، أتقول الصدق . .!؟

ـ أجل يا عصام ، كان ذلك منذ صباح يوم أمس ، وقد طلب مني صلاح أن أزورك وأخبرك بهذا . .

ـ شكراً لك يا دكتور ، شكراً جزيلاً . .

يصبح للحزن لذة . .

حين ينبعث من أعماقه الفرح . .

حين ينبت الأمل في بساتين الموت الخاوية . .

وحين تولد المعجزات من بطون الليالي الحالكة . .

لذة كهذه . .

تجعل من المضحين يتشبثون بيد الموت أكثر ، حتى يحيا ويسعد غيرهم . .

* * * * * * *

أقف عند قبرك كالأرملة السوداء ، تلك الأرملة التي قتلت زوجها ، لتطرد السعادة من نسيجها الهين . .

لتحلق بشوق ذكريات ماضيها بجنون وطيش . .

لتحلق بشوق يرمي بها الى المجهول . .

ـ ستدخل الى المنزل بصفتك عامل صيانة ، وسأعلمك جميع المداخل ، حتى لا تتوه بعد ذلك . .

ـ ونصيبي . .؟

نصيب القاتل كان مدفوعاً من جيب القتيل ، دفعته من جيبك أنتَ يا يعقوب . .

ـ لحظة وصولك مباشرة اختبئ في هذا الدولاب

ـ وما كلمة السر التي سأخرج بها . .؟

ـ مممم ، ثلاث طرقات ، سأطرق الدولاب ثلاث مرات . .

لم تكن بالرجل السهل ، كنت محنكاً ومخادعاً ، لكن لكل منا نقطة ضعفه ، ونقطة ضعفك كانت في كأسك الذي جعل من مقتلك سهلاً . .

رتبت لكل شيء ، رتبت أن يكون مقتلك كوفاة طبيعية ، في حفل صاخب ، حفل يلهو كل من فيه . .

وأكون قريبة منهم وبعيدة عن الظنون . .

لكن من ذلك الشخص الذي عبث بنسيج خطتي ، وقرأ شفرتي ، لينفذ مطلبي دون مقابل . .؟

ـ صوفيا . .!!

ـ . . . .

ـ أتضعين الورود على القبر . .!؟

ـ هو قبر والدي . .

ـ . . . . !!

ـ الى أين أنتِ ذاهبة . .؟

ـ لا أعلم . .

لا أعلم ، فها هي الأقدار تأخذني لتلك الممرات الضيقة ، العتيقة ، والمزدحمة بالبشر المتهالكين . . المتهالكين من الجوع والفقر . .

ـ يستحيل أن أضعها في حسابي . .

ـ أترفض مساعدتي يا صلاح . .!؟

ـ سأشعر بأني أشاركك ما سرقتِ

ـ أنا لم أسرق ، يعقوب أخذ أياماً من عمري بدلاً منها . .

ـ ولكن . .

ـ أرجوك ، أرجوك يا صلاح . .

رجوته ليغدرني ويرد لي الضربة ، ليسافر دون علمي ، ليبيع أخر مأوى لي ، وليأخذ معه كل شيء . .

كل شيء . .

ـ آسيا . .!!

ـ . . . .

ـ هيا فلتدخلي . .

ـ أنا . . أنا . .

ـ خسرتِ كل شيء ، يبدو هذا واضح عليك . .

ـ . . . .

ـ يمكنك المبيت هنا

ـ . . . .

ـ حسناً ، علي الذهاب الآن . .

ـ الى أين أنتَ ذاهب . .!؟

ـ الى العمل . .

ـ ولكن ألن تقوم بتنظيف مكب النفايات هذا . .؟

ـ مكب النفايات . .!!

ـ . . . .

ـ لا ، أنتِ من ستقوم بتنظيف مكب النفايات الذي سيأويك

ـ ولكن ، جمال . .

ـ هل لديك بديل . .؟

ـ . . . .

ـ اه ، قبل أن أنسى ، فلتتفقدي جيوب سراويلي جيداً قبل أن تغسليها بيديك الناعمتين

ـ . . . . !!

* * * * * * *

لم يكن لدي مما سرقت آسيا بديل . .

كان علي أخذ كل شيء لأشتري لأمي الحياة . .

كان علي أخذ كل شيء لأبيع لآسيا الموت ، فمثلها لا يستحق فرصة ثانية . .

كما كان علي أن أرسل له خبر نجاتها ، ليتشبث ذلك الأحمق بالموت أكثر ، ليصبح أطلالاً من النسيان ويذوق طعم الوحدة الحقيقي . .

ـ بعد أن تنجو وتتعافى ، فلتخبرها بأني قد مت في حادث سير ، حتى تنساني مع مرور الوقت ولا تعود تسألك عني . .

ـ أتحاول تجربة الموت البطئ . .!؟

ذلك المغفل أصر أن يضحي بحياته ، سعادته ، وسعادة والدته لأجل ابنة يعقوب التي لم تهوه يوماً . .

ـ هو ليس كذلك . .

ـ حقاً ، وما الموت البطيء بنظرك . .؟

ـ أرجوك يا صلاح ، يكفي لا أريد سماع شيء بعد . .

كان لقـائـي الأول بيعقـوب بعد لقائي بآسـيـا ، آسـيـا التي عـادت تنبش حقيبـة ذكرياتي ، عـادت تبحث عـن جثة حبها المغـدورة ، عادت لأنتقـم منها ، لأذيقها مـن كأس العذاب الذي تجرعته . .

ـ شكراً لك سيد يعقوب . .

ـ أتمنى أن التقيك مجدداً . .

ـ وأنا كذلك . .

ـ أهلاً ، أهلاً بزوج ابنتي المستقبلي . .

ذلك ما كان يلقبني به ، حين تملكت واستحوذت على إعجابه . .

كما تملكت واستحوذت على عقل وقلب آسيا . .

علقتها ، جننتها حتى فاض كيل الشوق بها ، فبدأت تدبر لقتل زوجها في تلك الليلة . .

الليلة التي ذهبت فيها لأحبط أي تدبير لها ، ذهبت لأظهر

نجم الحفل ، المنقذ الذي سيهديه يعقوب ابنته على طبق من الألماس . .

المنقذ الذي سيكشف أوراق لعبته مع آسيا ، ويحرق قلبها لحظة زواجه بابنة يعقوب . .

ـ ما الذي جاء بهذا الأحمق ، ولمَ لا يجيب على اتصالي . .!؟

نسيت وجود عصام ، بعد أن رأيت سقف حساباتي ينهار وتتبعثر حجارته من حولي . .

بعد أن رأيت ذلك الوجه البرئ صاحب العيون الحانية ، الذي راح يسرقني من بين الجموع . .

راح يشدني ويسيرني من ورائه كالعبد . .

لأجد نفسي مع أغنية الميلاد وضوء الشموع أطعن لأجله يعقوب . .

أجل أنا هو . .

لكنه أراد قتل أمي . .

أمي التي لم تعلم بوجودي حينها ، لم تعلم إني من أنقذتها . .

فقد اختبأت في إحدى الزوايا عن ناظرها ، اختبأت منتظراً هروبها . .

لكنها لم تهرب إنما جلست تمسك بيده ، كانت تتحسس نبضه على ما ظن ليطمئن قلبها . .

كفأته مرة أخرى على وجهه بعد أن هربت لأهديه الطعنة القاضية ، والتي أزلتُ بصماتنا من بعدها

ثم هربت أنا الآخر . .

وهرب مني كل شيء . .

فأنا اللوحة التي تنفر منها الوجوه والألوان . .

أنا اللوحة التي اطفأت شموعها وحيدة دون أمنيات . .

أنا اللوحة التي لم ترسم الأقدار فيها أي فرص ثانية في هذه الحياة . .

ـ آاااااااه لتصرخ إيها البحر ، إيها السكون معي قد ودعتها مرتين ، قد ودعت أمي . . أمي . .

(25)

أتشعر بالندم...؟

بحر الشـوق الأزلي ، هو ذلـك البحر
الذي اعتاد على ابتلاع سـفن ضحاياه
وإلقاء لعنته عليهـم ، تلك اللعنة التي
تجعـل منهم مجـرد خيـالات تحاول
أن تجد سـبيل خلاصها فـي دوامات
النسـيان ، رغم أن لا سـبيل لها إلا في
لقاء من تسعى لنسيانهم . . .

ها أنا مجرد خيال ، أقبع خلف قضبان لم أجد فيها سبيلاً للخلاص . .

لا لأني قد شفيت منهم . .

لا لأني قد نسيتهم أو محوتهم من سطور حياتي . .

إنما لشفائهم ، لنسيانهم ومحوهم لي . .

بنسيانهم لي ، قد قطعوا سبل الخلاص ، ووأدوا جميع فسائل الأمل . .

ظهرت في حياتي كالوردة الحمراء التي تنبت بعد تساقط الثلوج ، لتصنع من نفسها خزانة لأسراري . . أسراراً من شتى الأحجام ، صغيرة تافهة ، وكبيرة لا تقدر بثمن . .

أو ربما لم يكن لها أي ثمن . .؟

فهي لم تثرها أسراري ، لم تستهوها أحلامي ، وعبثاً كانت تنصت لثرثرتي . .

رغم إني كنت أراها تنصت بعينيها ، بقلبها ، بروحها ، هي كانت تنصت بجميع حواسها . .

ذلك ما كنت أرى . .

والحقيقة إني لا أرى ، لا أبصر ، لا أفهم قراءة وجوه البشر ، ولا أفقه لغة خداعهم . .

لا أفقه ما معنى أن تخدعني ، وتتركني وحيداً بعد أن ترمي بوجهي خطابها الأخير الساخر . .

ـ لن أسامحك طوال حياتي ، ها . . ها . . لن تسامحني . .

أما قاتلتي الأخرى ، فلا أعلم أن كانت ستسامحني ، أن استطاعت نسياني . .

هل استطعت يا أمي أن تنسيني . .؟

هل استطعت أن تنبذي مخلوقاً نما بين احشائك . .؟

هل يلازمك طيفي أم جفت دمعتك وما عادت تسأل عني . .؟

هل بنيتي لي قبراً له شاهد يحصي أيام حياتي وكل يوم صرت تكسيه بالورود المفضلة لديك أم صارت زياراتك له متقطعة ، متباعدة حتى ألهتك الأيام عني . .؟

أمي هل غفوت ذات ليلة قبل أن تقبلي جبيني ، أو قبل أن تغطيني ، أو قبل أن تذكريني بدعاء في محراب صلاتك ، بينما أنا أنعم بالدفء في حضن سريري . .؟

إن كان جوابك لا . .

فأرجوك يا أمي الآن وغداً لا تنسيني . .

لا تنسيني في وحدتي ، في عزلتي ، في ظلمتي ، في وحشتي ، وأنا أرتعش من برد ، من خوف في حضن رمسي . .

ـ ها قد جئتَ ، لكن ، لمَ أراك قد جئتَ متأخراً . .؟

هل السبب هو عدم نومي وانشغالي بحساب دقائق وثواني الليل والتي يتلي رحيلها قدومك . .؟

ولمَ انتظر قدوم الصبح . .؟

لأجل أمنية . .؟ لأجل أمل . .؟ أم لا شيء . .؟

ـ ما بك يا صغيري . .؟

حط عصفور كسير الجناح عند نافذة زنزانتي . .

عصفور كالذي زارني ذات ليلة في أحلامي ، وعلى ما يبدو قد سقط ضحية أناشيد وهتافات أصحابه . .

ـ ما الذي جاء بك الى هنا . .؟ أتود مشاركتي لحظات حياتي الأخيرة ، أم ستؤدي لي مشهد احتضار وانتزاع روحك الصغيرة البريئة لتهون علي توديع روحي . .؟

لا . . لا تقل لي أن جناحك المكسور يحمل أخباراً .!!

يا لحظي العاثر حين أنتظر الأخبار ، لا تأتيني إلا على أجنحة متكسرة . .

ـ أتشعر بالندم أم الألم ، وأيهما أشد ما يؤذيك أيها العصفور الصغير . .؟

ـ إنهض أيها المحكوم . .

ـ سأتركك هنا يا صغيري لتنام أو تموت بهدوء ، فمن يدري قد

تلتقي أرواحنا بعد قليل لتحلق معاً . .

ألبسوا يديّ وقدميّ الأسوار والسلاسل خشية أن أحلّق ، أن أهرب من الموت . .

ولِمَ الهروب ، وأنا ميت يحاولون أن يميتوه ميتة أخرى . .؟

ميت يسير في طريق طويلة أو ربما خيل له ذلك ، لأن فيها أطيافاً تلاحقه . .

يلاحقني طيف يعقوب وسكينه المغروسة في ظهره والدود واللحم المتفسخ يتساقط من فمه كلما قال لي

ـ ستموت . . ستموت . .

بينما كنت أختنق بدخان سيجارة صوفيا وهي ترسم حلقات منه فوق وجهي . .

وكلما انزاحت سحابة حلقاته أرى طيف صلاح ، وأمي تتكئ عليه حاملة صندوق ذكرياتها وهي تطالبني بخاتم أبي ذي الحجر الفيروزي . .

وعن يميني أرملة يعقوب تخوفني بهرتها ذات اللون الرمادي والتي تحاول بمخالبها رسم وشمٍ لي . .

بعد كل ذلك انتهى الطريق بحبل أصم ، بطوق لا يلينه ألم أو أنين . .

طوق يقف كالغول الجائع حتى يفترس جسدي المرتعد ، وبقايا روحي . .

مع بداية مراسيم افتراسي ، إحالتي للعدم ، أجد العصفور الكسير قد جاء . .

جاء ليفسد على الغول وليمته ، جاء لإيصال أخبار رغم ترنحه ، تخبطه ، جاء ليرتطم بوجهي ثم يسقط بعد أن أصر على الوصول . .

ـ لكن . .!!

نظرت الى الأسفل ، الى اليمين ، الى اليسار ، نظرت من حولي لأجد . .

لأجد لا شيء ، لا عصفور ، لا غول ، لا جلادين ، ولا طيوف . .

رحل كل من كان حولي ، ليحل مكانهم حلمي الضبابي . .

ذلك الصديق الوفي الذي لم يود أن أرحل إلا بعد أن يودعني . .

ذلك الصديق الوفي الذي مدّ لي ذراعين من وسط سحب ضبابه ، لتناولني شراشف بيضاء قيدت بعضها ببعض . .

حتى أصنع سلم نجاتي ، سلم يأخذني بعيداً عن الموت ، عن الأطياف ، عن الغول . .

تناسيت موعد بقايا روحي مع الموت وبدأت أتسلق السلم بفرح كبير . .

وأنا أحلق كطير بأجنحة قوية ، أجنحة لا تخاف المرتفعات أو الارتماء في أحضان المجهول . .

لكنها تخاف لقاء الموت . .

إذ يوجد داخل كل منا حتى آخر لحظة في الحياة ، بقايا خوف من الموت ، من ركوب محطة لا رجوع فيها ، حتى لو كنا أشباه أموات . .

وأنا الآن من أشباه الأموات بعد أن خانتني ذراعاي ، بعد أن أوهمتني بسعادة مزيفة ، بعد أن ألتف سلم نجاتها حول عنقي حتى بدأت . .

بدأت أختنق ، أنا أختنق ، أنا أموت ، أموت . . أ . . أ . .

ألضئيل ما زال يدور ، والأجسام الرقيقة ما زالت تحترق . .

أما المدفئة فقد صارت المثوى الأبدي لمدونة ذات غلاف ذهبي ، كما أن الخراب قد عاش في غرفتي بعد رنة هاتف مجنونة . .

وهناك طرد بألوان زاهية يحمل بين طياته موافقة متأخرة لنشر كتاباتي . .

وزهرية هوت أرضاً واختفى جمالها لتذكرني بموت أمي ، لأهرب كالطفل المذنب الخائف . .

لأهرب كالمجنون دون وعي ،لتصدمني شابة بسيارتها ،لترميني على قارعة الطريق . .

لترميني في غرفة ، في حلم ، في هوس ، في وهم ، في مشفى . .

لأصنع من خيالي المريض حياة أخرى وأحشر فيها كل من أرى حولي ، لأخلق لنفسي فرصة ثانية أكفر فيها عن ذنبي . .

أخلق حياة ثانية ، أموت فيها ، لأنال رضا أمٍ رحلت قبل أن تسامحني . .

(النهاية)

لو

لو . . .

هي تلكَ المنجمة التي تكذب وتدعي بوجود فرص ثانية ، رغم إننا لا نرى ذلك إلا في الأحلام . .

فالدقائق التي تمضي لا تعود مرة أخرى . .

وأن صدقت بوجود التشابه فكذلك وجد الاختلاف . .

لو . . .

هي تلكَ الثكلى التي وارى الثرى جميع أبنائها ، حسرة ، حلم ، أمنية مستعصية ، وآخرهم كان المستحيل . .

لو . . .

هي تلكَ المخادعة التي تعلق مصائرنا بمستقبل مجهول ، لنترك ما تملك أيدينا ، ما يمثل أمامنا ونبدأ بالبحث عن الأفضل ، عن الأحسن داخل دهاليز أقدارنا الخفية . .

لكن . . .

إن أردنا أن نملك السعادة دوماً ، فذلك أمر سهل . .

فهي لا تحتاج منا سوى قليل من الصبر ، من الحب ، من الاهتمام ، ومن العرفان بالجميل . .

قليل من كل ذلك لنملك السعادة ، لنشعر بقيمة ما لدينا قبل أن نفقده ، وقبل فوات الأوان الذي لا ينفع فيه شوق أو تضحية أو ذكريات وأحزان . .

فلا وجود لفرص ثانية تجلب ما قد صار ماضياً أو مستقبلاً مجهول الأقدار . .

21 **مارس** 2018

كان بين الصفحات السابقة بعض المشاعر الإنسانية بخيرها وشرها ، والتي تجمعت وتجسدت بهيئة أشخاص . .

معرفة عن نفسها ، عن أسرارها وأحلامها ، عن كل ما يجول بخاطرها . .

تاركة بعد ذلك بعض السطور الخالية لمشاعرك وما تخبئ في داخلها من أحلام ، أمنيات أو حتى أحزان . .

لكن قبل أن تروي هذه السطور الخالية بحبر كلماتك . .

تذكر . .

كن أنت ، أكتب بصدق ما تشعر به ، ما يملأ فؤادك . .

لا تفتش في قصص الغير عن نفسك ، وما ينبع من القلب سيصل الى القلب . .

(1) أما زال يراودك ذلك الحلم . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(2) هل مات والدك حقاً . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(3) أتخاف من الأموات . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(4) هل يشعر بوجودك . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(5) من يقدر على النسيان . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(6) هل ستغفر لهم . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(7) كيف رحلوا . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(8) لماذا عاد الآن . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(9) أتخشى الموت . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(10) ماذا تتمنى الآن . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(11) من أنت . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(12) أي هروب ستختار . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(13) هل كنت واهم . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(14) ما الذي يوجد على الجانب الآخر من الحياة . . .؟

. . . .

(15) كم مضى على موتك . . .؟

. . . .

(16) لمَ قد نسامح . . .؟

. . . .

(17) ما هو الشوق . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(18) كيف نعلم أن الأوان قد فات . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(19) هل أنت بخير . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(20) هل أنت مصر على قرارك . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(21) لمَ فعلت ذلك . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(22) ما الحقيقة . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(23) ما لون آخر حكاياتك . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(24) ما الموت البطئ . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(25) أتشعر بالندم . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(26) أي واحدة من شخصيات الرواية ترى فيها نفسك . . .؟ ولماذا . . .؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

المحتويات